الباب الرابع
فى الرعاية الأدبية

أقصد بالرعاية الأدبية تثقيف العقول وتطهير الأرواح وتهذيب الأخلاق، ويعبر عنها أحياناً بالتربية والتعليم. والتربية هى التأثير الذى يحدثه الوالدان وغيرهما من الكبار قَصْداً فى نفس الصغير، وقد يقصد بها نفس الأثر الحادث بهذه الوسيلة، على حد التعبير المألوف. إما أن يراد بها المعنى المصدرى. وإما أن يراد بها المعنى الحاصل بالمصدر. والتعليم يراد به التثقيف العقلى إذا ذكر فى مقابل التربية أو معها، ويراد ما يراد بالتربية إذا انفصلا عن بعضهما. ومهما يكن من شىء فإن التأثير الذى يحدث فى نفس الصغير قد يكون فى مجال تهذيب الغرائز والعواطف لتعويد الطفل الأخلاق الطيبة والسلوك المستقيم، وقد يكون فى مجال تنمية مداركه وتوسيع أفقه العلمى بما يكسبه الخبرة والمران على الحياة. وكلٍ من هذين التأثيرين يعتمد أحدهما على الآخر، ولا يمكن الفصل بينهما تماماً، فالأخلاق والسلوك يتأثران بالعلم والمعرفة، والعلم والمعرفة يتسع مجالهما ليشمل الأخلاق والسلوك، بل قد تطلق التربية على ما يشمل رعاية الجسم مادياً إلى جانب رعايته عقلياً وروحياً وخلقياً، وللاصطلاح دخل كبير فى تحديد المراد من هذه الألفاظ.

والرعاية الأدبية، بمعنى التربية والتعليم فى عرفنا الحديث، لها مناهج متعددة ما بين قديم وحديث، وما بين شرقى وغربى، وما بين دينى ودنيوى، والنظريات والأبحاث والآراء فى هذا المجال كثيرة منوعة إلى حد كبير، يفوق ما هو حاصل بالنسبة للرعاية المادية بكثير، لأنها تتعلق بأحوال النفس، وهى من العمق والغموض بقدر يجعل مهمة المربين شاقة تحتاج إلى جهد كبير. ولا نستطيع الآن أن نلم بكل هذه المناهج، فقد عنى بها المختصون فى الوزارات والهيئات المشرفة والقائمة على هذا النوع من التربية، وحسبنا أن نطرق بعض المسائل التى عالجها المربون وأوشكت أن تكون حقائق، ونبين ما فى الإسلام من صور تحدد منهج هذه التربية، وما أوصى به علماء الإسلام بناء على تجاربهم ومعارفهم وابتكاراتهم فى هذا الموضوع.

الفصل الأول
فى العوامل المؤثرة فى السلوك

هناك عوامل كثيرة تؤثر فى سلوك الناشىء ومداركه ونفسيته يمكن تركيزها فى عاملين أساسيين هما: الوراثة والبيئة. وهذان العاملان مشتركان فى الرعاية، ولكل منهما أهميته، ولا يجوز أن يهمل أحدهما عند تقويم السلوك ومعالجة الانحراف عند الأحداث والكبار، وإليك كلمة عن كل منهما:

الوراثة:

الوراثة هى انتقال الآثار من الأصول إلى الفروع والتشابه بينهما، وهذا التشابه ليس خاصاً بالإنسان، فهو مشاهد فى الحيوان بل فى النبات، لأنه سنة من سنن الله الكونية، آمنت بها العقول وتحدثت عنها كل الأجيال.

وقد ورد فى كلام العرب ما يدل عليها، من ذلك قولهم فى النبات:

وهل ينبت الخطِّى إلا وشيجه وتُغْرَسُ إلا فى منابتها النخل

وقوله: إن العصا من هذه العُصَيّة، وليس يجنى من الشوك العنب ولا من الكرْم الحنظل، بل شبهوا طالب المستحيل بطالب الزبيب من الحنظل، وقالوا فى الحيوان: إن هذا الشبل من ذاك الأسد. وفى الإنسان:

بأبه اقتدى عدىٌّ فى الكرم ومن يشابه أبه فما ظلم

والله سبحانه وتعالى يقول فى ذلك على لسان اليهود: ﴿**فَأَتَتْ به قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا**﴾ [مريم: ٢٧، ٢٨].

والمشاهد أن الطفل يرث خصائص والديه واستعداداتهما وخصائص أصوله التى انحدر منها على تفاوت فى هذا الميراث، وهو بهذا أشبه بالغصن الصغير فى فرع شجرة كبيرة، يحمل خصائصها ومميزاتها، ضرورة ارتباطه بها، وكثيراً ما يشاهد أثر هذه الوراثة فى أسر يغلب عليها طابع معين يمتد إلى عدة أجيال.

وقد تكون الموروثات آتية إلى الطفل من قبل الأب فقط، أو الأم فقط، ولكل منهما استعدادات خاصة، وقد يرث طفل خصائص أبيه، ويرث أخوه خصائص أمه.

ويقال: إن حاتمًا الطائى ورث الكرم عن أمه «غنيّة بنت عفيف بن عمرو بن عبد القيس. وقد لامها قومها على سخائها، ثم حجروا عليها مدة لا يدفعون لها شيئًا، حتى إذا وجدوا أنها تألمت بعثوا إليها (صرمة) من إبلها فأعطتها امرأة جاءت تسألها وقالت لها: **دونك هذه الصرمة فخذيها، فقد، والله، مسنى من ألم الجوع ما آليت معه ألا أمنع الدهر سائلا شيئًا**[1].

ويتم هذا التوارث بطريقة لم يدرك سرها الحقيقي أحد، وإن كانت هناك محاولات فى هذا المجال. ولعل من الخير أن نورد هنا حديثًا يكون منطلقًا للأطباء وذوى الاختصاص فى بحوثهم حول الوراثة لمعرفة كيف يكون الجنين شبيهًا بأحد أبويه. ورد فى الصحيحين عن النبى – ﷺ – أن أم سلمة رضى الله عنها سألته عن الاحتلام، وهل يكون للمرأة ماء، فقال لها «نعم، فمن أين يكون الشبه؟ إن ماء الرجل غليظ أبيض وماء المرأة رقيق أصفر، فمن أيهما علا أو سبق يكون منه الشبه» وفى رواية «إذا علا ماؤها ماء الرجل أشبه الولد أخواله، وإذا علا ماء الرجل ماءها أشبه أعمامه» وفى رواية: أن يهوديًا سأله عن الولد، فقال له النبى – ﷺ – «ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فَعَلاَ مَنِيُّ الرجل منىَ المرأة أذكرَا بإذن الله – أى جاء الولد ذكرًا – وإذا علا مَنِيُّ المرأة منىَ الرجل آنثَا بإذن الله» أى جاء الولد أنثى. فهم بعض الشراح من مثل هذه الرواية أن هناك علوًا وسبقًا، ولكل منهما أثره، فالعلوُ يتسبب عنه نوع المولود – ذكرًا أو أنثى – والسبق يتسبب عنه الشبه لأبيه أو لأمه فى الخلقة أو الطبع، ولكن ذلك لم يثبت بطريقة علمية قاطعة، والعلو والسبق شىء واحد، والشك من الراوى فى أى اللفظين سمعه من النبى – ﷺ – على أن السبق أو العلو مما يصعب التحكم فيه، ودخوله تحت الاختبار، فلا ينبغى الاعتماد عليه فى التحكم فى نوع الجنين. لكن تقدم تفسير لذلك باحتواء ماء الرجل على عنصرى الذكورة والأنوثة،

(١) أعلام النساء لعمر كحالة.

واحتواء بويضة الأنثى على عنصر الأنوثة فقط، فالعلو أو السبق يمكن حمله على غلبة عناصر الذكورة والأنوثة. وكل ذلك بإذن الله.

ويفيدنا هذا الحديث عدة مسائل:

١ – كيف يشبه الولد أحد أبويه. ٢ – كيف يتحدد نوع المولود.

٣ – أن الموروثات يجوز ألا تكون من الأب والأم المباشرين، بل تكون من الجد الذى انتقلت صفاته إلى أولاده، فظهرت فى بعضهم وهم أعمام الطفل أو اخواله، واستكنَّت فى والده حتى ظهرت فيه، وقد قرر العلماء أن صفات الأصل يحتمل ألا توجد آثارها فى الفرع مباشرة، ولكنها تظهر فى فروعه بعد جيل أو أجيال. وكان أحد ولدى فاطمة بنت النبى – ﷺ – «الحسن والحسين» يشبه النبى أكثر مما يشبه اباه علياً، فكانت أمه ترقصه وتقول:

إن بُنَىَّ شبه النبى ليس شبيهًا بعلى

٤ – أن هذا الشبه أو قانون الوراثة ليس حتميًا، وليس أمراً طبيعيًا مطَّرداً، بل إن ذلك متوقف على عوامل أهمها إرادة الله سبحانه، وهو سر قول الحديث «أذكرًا بإذن الله». فعُلُوُّ ماء أحد الزوجين أو غلبته على الآخر – المذكور فى الحديث – لم يحدد النبى – ﷺ – كيفيته، وترك للعقول والأبحاث المجال لمعرفته، وللأطباء والمختصين كلام فى هذا الموضوع عن الوسائط التى تنقل الموروثات. وهى الكروموسومات، يرجع إليه فى كتبهم، وقد ذكروا أن الحيوان المنوى فيه ٢٣ صبغيًا «كروموسومات» وهى مسجل عليها نحو ٥٠٪ من صفات الجنين الذى ستكون بعد. والبويضة هى الأخرى لها ٢٣ صبغيًا مسجلاً عليها صفات ٥٠٪ من الأم تورثها الجنين.

هذا هو طريق انتقال صفات الأصل إلى الفرع، وهو طريق فسيولوچى، ومن الطريف أن نذكر أن من طرق الوراثة عند الصينيين – كما تقدم – أن المرأة تدثر طفلها بعد ولادته بثياب أبيه مدة شهر لتتسرب إليه فضائله، كما ذكره الرحالة محمد ثابت.

وهذه الموروثات كما تكون فى التكوين المادى والتركيب العضوى تكون

فى الأمور النفسية والمعنوية، وقد عنى الباحثون بدراسة قوانين الوراثة وأثرها، وأفادت منها التربية فى عالم الإنسان والحيوان والنبات، وكما اشتهر القسيس النمسوى « مندل » المولود سنة ١٨٢٢م والمتوفى سنة ١٨٨٤م فى دراسة الوراثة فى النبات والحيوان، اشتهر العالم الفرنسى « ريبو » المولود سنة ١٨٣٩م والمتوفى سنة ١٩١٦، بدراسة الوراثة النفسية فى الإنسان، وأثبت أن الصفات العقلية والخلقية لا تنتقل هى نفسها إلى الجنين، وإنما ينتقل إليه ما تعتمد عليه من دعائم فى التكوين الجسمى والعصبى، أى أن الصفات العقلية والخلقية لا تنتقل بطريق مباشر، بل تنشأ عن وراثة لبعض أوضاع مادية فى الجسم والغدد والجهاز العصبى، ولكن المهم أن صفات الأصل تشاهد فى الفرع، ولا يهمنا فى بحثنا هذا كيف تم ذلك.

وهنا كلام فيما يورث من الصفات، هل هو الصفات الطبيعية فقط، أو يجوز أن تورث أيضًا الصفات المكتسبة، فأصحاب مذهب النشوء والإرتقاء مثل: دارون ولامارك وسبنسر، يقولون : إن الصفات المكتسبة تورث. أما وايزمان وبيرسون فلا يقولان بوراثتها، والرأى السديد عند الباحثين المنصفين أن الصفات المكتسبة تورث إذا أثرت فى الجهاز العصبى وتغلغلت فى خلاياه.

ويجب أن يلاحظ أن الصفات لا تورث كما هى، بل ولا ينتقل الاستعداد لتلك الصفات بخصوصها، فكل ما يقال: أن الوالدين حافظا بفضائلهما على صحة الطفل جسمًا ونفسًا، فولد وهو قوى قوة تمكّنه من مقاومة كثير من الأمراض الجسمية والعقلية، أى فيه استعداد عام للفضائل، لا استعداد خاص لفضائل أبيه وأمه، فكل ما يمكن هو تقليد آبائه فيها بسهولة. وعلى هذا يمكن أن يقال: إن الصفات المكتسبة لا تورث ولكن تورث أثارها. وهذا هو رأى « ريبو ».

وقد فطن العرب فى الجاهلية إلى الوراثة – كما تقدمت الإشارة إليه – وحرصوا على الإفادة منها. ويتضح ذلك فى محيط الأسرة من صورة نكاح الاستبضاع، حيث كان العربى يأمر زوجته إذا طهرت من الحيض أن ترسل إلى بعض الرجال المشهورين ليتصل بها، ويعتزلها زوجها ولا يمسها حتى يتبين

حملها من هذا الرجل، فإن حملت اتصل بها إذا أراد. تقول السيدة عائشة فى تعليل ذلك وإنما يفعل ذلك رغبة فى نجابة الولد[١].

ولعل مما يوضح إيمانهم بعامل الوراثة ما جاء فى كتاب «محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء» للراغب الأصبهانى[٢]: أن «مخرق» أتى بنساء، فطلبن منه أن يعفو عنهن فأبى، فقالت امرأة منهن: أطال الله سهادك، وأخمد رمادك، فما قتلت إلا نساء أعلاهن نَدىٌّ، وأسفلهن دَمِىٌّ، ما أدركت من قتلنا ثأراً، ولا محوت عن نفسك به عاراً. فأمر بإخلاء سبيلهن، إلا هذه المرأة، وقال: أخشى أن تلد مثلها.

وتقدم أن العرب كانوا يحكمون بالوراثة فى تحقيق نسب المولود إلى أبيه. فكانت البَغِىُّ تلحق ولدها بأحد من اتصلوا بها إذا لم يَدَّعه واحد منهم، وذلك باستشارة القافة. وهم خبراء القيافة، وكانوا يحكمون بآثار الأقدام على أصحابها الذين كانوا يختلفون إلى البغى ليعرفوهم. ولعل هذا كان من بين الأمور التى كانت تدعو من يغشون منازل المومسات، إلى أن يجروا أطراف مآزرهم وراءهم لتطمس آثار أقدامهم على الرمال، حتى لا يكونوا عرضة لأن يلتحق بنسبهم من تجىء به البغى أو المُظْلِمَة، كما كانوا يسمونها، لأن سفْلَة الناس وسوقتهم كانوا يختلفون إلى البغايا فى الظلام، وكانوا يجرون أطراف مآزرهم وراءهم، ولذلك جاء من جوامع كلمهم فى المدح: فلان لا يرخى لمظلمة إزاره[٣].

وتقدم فى حديث الملاعنة إشارة إلى ذلك، فى الغلام الذى تنازعه عبد بن زمعة وسعد بن أبى وقاص، وكان شبيهاً بعتبة أخى سعد، كما ورد فى حديث من اتهم زوجته بشريك بن سحماء قول الرسول عليه الصلاة والسلام «فإن جاءت به أكحل العينين سابغ الأليتين خَدلَّج الساقين فهو لشريك بن سحماء» فجاءت به كذلك. فقال النبى ﷺ: «لولا ما مضى من كتاب الله لكان لى ولها شأن»[٤] والذى مضى فى كتاب الله هو الأيمان التى أقسمتها كما فى رواية

---

(١) رواه البخارى.
(٢) ج١ ص١٤٩.
(٣) د. على وافى – مجلة الأزهر مجلد ٣٦ ص٥٦٥.
(٤) رواه البخارى.

أبى داود. ومعنى خدلّج عظيم. وتقدم أيضًا ارتياح النبى – ﷺ – لشبه أسامة بأبيه زيد.

وقد عرف العرب الوراثة الجسمية المادية والوراثة الخلقية قبل أن يبين لهم الإسلام ذلك، ويظهر هذا فى موضوع خطبة هند بنت عتبة بن ربيعة إلى سهيل ابن عمرو وأبى سفيان. فقد قيل لها: إن سهيلاً فى ثروة وسعة من العيش، إن تابعته تابعك، وإن ملت عنه حط إليك، تحكمين عليه فى أهله وماله، فقالت عنه: مضياع للحرة، فما عست أن تلين بعد إبائها، وتضيع تحت جناحه، إذا تابعها بعلها فأشّرتْ، وخافها أهلها فأمنت، فساء عند ذلك حالها، وقبح عند ذلك دلالها، فإن جاءت بولد أحمقت، وإن أنجبت فعن خطأ ما أنجبت، وفضّلت عليه أبا سفيان[1]. واعترف الإسلام بالوراثة فى موضوع النسب كما ذكر وفى غيره، فحث على اختيار الزوجات، لأن العرق دساس، روى ابن ماجه من حديث عائشة «تزوجوا فى الحجز الصالح» ولم يذكر عبارة «فأن العرق دساس» والحجز – بضم الحاء وكسرها – هو الأصل والمنبت. وروى بلفظ «انظر فى أى شىء تضع ولدك فأن العرق دساس» وهما حديثان ضعيفان. وروى التحذير من زواج خضراء الدمن، وهى المرأة الحسناء فى المنبت السوء. والحديث رواه الدارقطنى والعسكرى عن أبى سعيد الخدرى، وضعفّه العراقى. وقد قيل: إن جعفر بن سليمان بن على عاب يومًا على أولاده وأنهم ليسوا كما يحب، فقال ولده أحمد: إنك عمدت إلى فاسقى مكة والمدينة وإماء الحجاز، فأوعيت فيهم بضعك ثم تريد أن ينجبوا، هلا فعلت فى ولدك ما فعل أبوك فيك، حين اختار لك عقيلة قومها، وصدق الشاعر الذى يقول:

لا تنكحن سوى كريمة معشر ... فالعرق دساس من الطرفين
أو ماترى أن النتائج كلها ... تبع الأخس من المقدمتين

وقد نصحت العرب بالاغتراب فى الزواج مخافة الضوى غالبًا، كما يقول الشاعر:

---

(١) تقدم فى الجزء الأول من هذه الموسوعة ص٢٦١ وما بعدها.

فـــتى لـم تلده بنت عم قـــريبـــة فيضوى، وقد يضوى رديد الغرائب

وقال الرياشى المتوفى سنة ٢٥٧هـ:

فـأول إحـســانى إليكم تخـيـرى لماجـدة الأعـــراق بادٍ عـفـافـهـا

وقال رجل لأبى عمرو بن العلاء: لا أتزوج امرأة حتى أنظر إلى ولدى منها، بالنظر إلى أبيها وأمها، فإنها تجر بأحدهما. ومما يدل على أن بعض خصائص الأصل قد تكمن فى الفرع، ولا تظهر إلا بعد أجيال ما تقدم فى بحث ثبوت النسب بالفراش، من شك رجل فى نسبة ولده له، لأنه أسود، وسؤال النبى – ﷺ – عن ألوان إبله واختلاف لون واحد منها، وقول الرجل فى سبب ذلك، لعله نزعه عرق، وإقرار النبى له فيه. وسيأتى بيان دور المربى إزاء هذه الموروثات. وقد تقدم أن الله يصلح بصلاح الرجل ولده وولد ولده وأهل دويرته وأهل دويرات حوله.

البيئـــة :

البيئة هى كل ما يحيط بالإنسان ويؤثر فيه تأثيرًا ماديًا أو معنويًا، فى بدنه ونفسه وعقله وخلقه. ولا ينكر أحد أن كل كائن حى يتأثر بالجو الذي يعيش فيه والظواهر التى تحيط به، مثله في ذلك مثل النباتات التى تتأثر ببيئاتها. والإنسان ككل كائن حى يتأثر بالبيئة التى يعيش فيها حتى عندما يكون جنينًا فى بطن أمه. فبصرف النظر عن الصحة الجسمية للام وأثرها العضوى على تكوين الجنين نرى أن العوامل النفسية والعصبية التى تتعرض لها يتأثر بها الجنين أيضا، كما قرره المختصون وأيدته المشاهدة، ولا يقتصر هذا على الناحية الجسمية بل يتعداه إلى مجال النفس والعقل.

ومما هو مشاهد أن الحامل إذا توحمت على شيء ظهر أثره فى تكوين الجنين بصور مختلفة، بل إنها إذا توحمت عليه أثناء رضاعة الطفل ظهر الأثر أيضًا، وقد أنكر كثير من الباحثين ذلك، لكن شوهد أن بعض النساء تأتى بمولود فيه شبه بأحد الناس أو بأحد الحيوانات، دون أن يكون هناك اتصال جنسى بينهما، أو اتصال بنسب ينحدر منه هذا الشبه، ولا يظهر فى هذه الحالة أنه نزعه عرق[1]. فهل يمكن أن يقال: إن التأثرات النفسية والعصبية قد تكون بمثابة

(١) فى مختار الجبرتى «ج١ ص١٠٧» أن امرأة ولدت ولدًا يشبه الفيل، وكان الفيل قد حضر لأول مرة «ص١٠١».

رسل أو وسائط توصل هذه الانطباعات إلى جسم الجنين أو الرضيع عن طريق اللبن؟ رأيت فى سفر التكوين[1] ما يبين قدم هذه الظاهرة ومحاولة استغلالها، وهى أن يعقوب وضع قضباناً من فروع الشجر مخططة فى مساقى الغنم، لتتوحم عليها وتلد أغناماً مخططة. فليتأمل. وهذا يؤيد الرأى القائل إن الصفات المكتسبة تورث إذا أثرت تأثيراً عميقاً فى الأعصاب والأحاسيس. وفى ذيل تذكرة داود « ص٣١ » أن شبه الولد بوالديه قد يكون من التخيلات والأوهام ساعة الاتصال الجنسى، أو من تخيلات الحامل زمن تخلق الجنين. وتحدث العلماء عن حمل الغيرة، وقالوا: قد تمكث امرأة سنوات دون حمل مع عدم وجود موانع، ثم إذاجاءت ضرة حملت هذه المرأة، أو حملت لأن إحدى المقربات إليها حملت، وهذا يسمى حمل الغيرة، يقول الدكتور إسماعيل صبرى رئيس قسم العقم وتنظيم الأسرة بمستشفى الجلاء التعليمى بمصر: إن الغيرة هى تمنى النعم التى ينعم بها الآخرون، أما الحقد فهو تمنى زوالها [فى عرف علماء الشرع أن الحالة الأولى تسمى الغبطة وهى محمودة، والثانية تسمى الحسد وهى مذمومة] والغيرة تؤدى إلى الحمل، لأنها عبارة عن انفعال عصبى شديد يؤدى إلى حدوث انفعالات فى خلايا المخ تؤثر بدورها على جزء منه يسمى « الهيبوتلاس » فتزداد إشارته العصبية الموجهة إلى الغدة النخامية فيزداد بالتالى إفرازها للهرمونات التى تساعد على حدوث التبويض[2].

كما تحدثوا عن الحمل الكاذب وأثره فى تغيرات الجسم، يقول الدكتور أحمد زكى: إن المرأة شديدة الرغبة فى الحمل أو شديدة الخوف منه تحدث لها أعراض الحمل وليس بها حمل، فينقطع حيضها ويثقل ثدياها، وتعرض لها فترة من الوحم والقىء ويكبر بطنها رويداً رويداً، كأن فيه جنيناً ينمو شهراً بعد شهر، ولو استمر ذلك الأمر حتى تبلغ أشهر الحمل لجاءها مخاض كاذب، بل استدماء وطلق كالولادة، غير أنها لا تلد شيئاً، كل هذا دليل على ما للحالة

(١) إصحاح ٣٠.

(٢) الأهرام ٢٧/١٢/١٩٨١.

النفسية من أثر، لا على العقل الواعى فحسب، ولكن حتى فيما لا إرادة فيه ولا وعى كهذه الأعراض[١].

ويقول ابن القيم: الحجام يرى الخُرَّاج فيشمئز منه فيخرج له مثله، ومداوى رَمَدٍ يقشعر فيحصل له مثله، كالتثاؤب لمن يرى متثائبًا[٢].

إن الطفل بعد ولادته يتعرض للتأثر بما يتأثر به كل إنسان من هذه البيئات، سواء منها الطبيعية والاجتماعية والسياسية وغيرها. فالبيئة الصحراوية غير البحرية، والزراعية غير الصناعية، والحارة غير الباردة، والديموقراطية غير الديكتاتورية، وكل ذلك له أثره الواضح على الطفل وعلى كل كائن حى. يقول ابن خلدون فى مقدمته:

إن سكان الأقاليم المعتدلة هم أعدل البشر ألونًا وأجسامًا وأخلاقًا وأدبًا، ومن أجل ذلك اختصهم الله بالنبوات. وسكان الأقاليم غير المعتدلة يبعدون عن الإنسانية بمقدار قربهم من الحيوان الأعجم فى أمزجتهم وأخلاقهم، فلا يعرفون نبوة ولا يدينون بشريعة، إلا من قرب منهم من جوانب الاعتدال، وها نحن أولاء نرى أهل السودان على العموم متصفين بالخفة والطيش، ولَعينَ بالرقص على كل توقيع ونغمة، وليس لذلك من سبب إلا أنهم لما سكنوا الأقاليم الحارة دهوراطويلة استولى الحر علي أمزجتهم وفى أصل تكوينهم، فأصبحت نفوسهم تكاد تكون أبدًا منتشية فرحًا وسرورًا، بحكم انتشار الروح الحيوانى فيهم.. إلى أن قال: إن الأقاليم المخصبة العيش لكثرة الزرع والضرع والأدم والفواكه يتصف أهلها بالبلادة فى أذهانهم والخشونة فى أجسامهم، وإن المقلّين المقتصرين على الألبان وخفيف الأغذية أحسن حالاً فى أجسامهم وأخلاقهم من المنغمسين فى بحار الترف والبذخ، فألوانهم أصفى، وأبدانهم أنقى، وأشكالهم أتم وأحسن، وأخلاقهم أبعد من الانحراف، وأذهانهم أثقب فى المعارف والإدراكات. أضف إلى ذلك أن المتجافين عن اللذات فى البادية والحاضرة أحسن دينًا وإقبالاً على العبادة وأقوم أخلاقًا وأمتن مذهبًا من أهل الترف والرفاهية الذين قست قلوبهم وطمست بصائرهم. اهـ[٣].

---

(١) مجلة العربى يونية ٩٦٨ ص١٣٩.
(٢) زاد المعاد – الاستفراغ بالقيء.
(٣) ص١٠٦.

إن مجال هذه التأثيرات يظهر فى تحديد الهدف من التربية، واختيار ما يلائمها من مواد وما يتخذ لها من وسائل، واليونان القديمة التى عاشت على الحروب كانت تعد أولادها لهذه المهمة، فتربيهم على نظام قاس سنتعرض له بعد، وعند سكان استراليا الأصليين إذا شب الغلام خضع لصنوف من التعذيب لمدة أربعة عشر أسبوعاً، يرمى بعدها فوق نار يزداد لهيبها تدريجياً وهو يتلوى فوقها بسرعة لكى يتجنب خطرها، فإن استمر فوقها عشر دقائق عُدَّ رجلاً، وزُيِّن بأشرطة من جلود الكانجرو[1].

والطفل فى البيئات المتعصبة والقبائل المتمسكة بالثأر التى تعتمد على البطش والسلاح، تربى أولادها وتُعدُّهم إعداداً خاصاً لهذه المهمة، ويبكرون برجولتهم ليرهبوا بهم أعداءهم، وقد ينصرفون بالولد عن تعليمه وتثقيفه، مؤثرين توجيهه هذه الوجهة، لأنها هى التى سيطرت على أعصابهم ومشاعرهم، وتوارثتها أجيالهم وانعقدت عليها نفوسهم.

لقد رأى رجل هنداً زوجة أبى سفيان ترقص ولدها معاوية فقال: إن هذا الولد إذا كبر سيسود قومه، ولكن أمَّه التى تؤهله لأكثر من ذلك لم ترض بهذا القول، بل قالت: ثكلته إن لم يسد غير قومه، وقال الكاتب المشهور «واشنطون إيرفنج»: إن كان فى طبعى لطف ودماثة فلأن أمى نشأت على ضفاف بحر «إطلسن» إذ كنت وأنا حدث أعتقد أن بهذا النهر روحاً يقوم به، وأنه قد طوى على الحرية والشجاعة والصدق والاستقامة، لا يعرف المصانعة والمحاذقة والخداع، **خلصت نيته وطهر قلبه واستقام مجراه، وعلته السكينة وخيمت عليه السعادة،** فاستمد عقلى منه، واستضاء خيالى بنوره[2].

وقد أدرك العرب أثر البيئة على الطفل فالتمسوا لأولادهم المراضع فى الصحراء، لينعموا بهوائها ولينشئوا على الخشونة والرجولة، وليتعلموا اللغة

---

(١) جولة فى ربوع الشرق لمحمد ثابت سنة ١٩٣٢.

(٢) مذكرات الأخلاق لجاد المولى وسالمان ص ١٠٠.

العربية الفصحى والعادات العربية الأصيلة، التى تحافظ عليها حياة البداوة، بعيدة عن الحضر المعرض للتأثيرات الكثيرة.

وإذا كان الكبير يتأثر بالبيئة فى أخلاقه وسلوكه فكيف بالصغير وهو أقوى استعداداً للتأثير، وأحرص على التقليد، لأنه يندفع إليه بغريزته وعواطفه، غير عابىء بحكم العقل، لأنه لم ينضج بعد حتى يقاوم الغرائز ويقف أمام العواطف. لقد كان نساء قريش لا يستطعن التطاول على أزواجهن. فلما هاجرن إلى المدينة تعلمن من نسائها اللاتى يغلبن أزوجهن، كما قرر ذلك عمر بن الخطاب فى حديث إيلاء النبى - ﷺ - من زوجاته. روى مسلم أن عمر لما دخل على النبى ﷺ بعد أن علم أنه آلى منهن قال له: الله أكبر، والله لو رأيتنا يارسول الله وكنا معشر قريش قوماً نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا أقواماً تغلبهم نساؤهم، فطفقن نساؤنا يتعلمن من نسائهم[1]...

ولما اندمج العرب عن طريق الفتوح والهجرات فى الأوساط والبيئات الأخرى تأثروا بها فى عاداتهم وسلوكهم،ولعل مما يشير إلى ذلك أن عمر لما زار معاوية بالشام ورأى أبَّهة الملك التى لم تعهد من قبل أجاب معاوية على تساؤله بقوله: إنا فى بلاد نمتنع فيها من جواسيس العدو، فلا بد لهم مما يرهبهم من هيبة السلطان، فتركه وشأنه[2].

وللتنبيه على خطر البيئة حذر الإسلام من صداقة من يخشى من أخلاقهم العدوى، فإن الطبع سراق. وقد قال النبى - ﷺ «المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»[3]. وقال الشاعر:

واحذر مصاحبة اللئيم فإنها تعدى كما يعدى الصحيح الأجرب

وأخطر البيئات تأثيراً على الناشىء بيئة الأسرة والمدرسة، ففى الأسرة يتأثر

---

(١) صحيح مسلم ج٣ ص٨٥.

(٢) العقد الفريد ج٢ ص٢١٢.

(٣) رواه أبو داود والترمذى عن أبي هريرة، وحسنه.

بسلوك كل أعضائها، من الوالدين والإخوة والخدم، ومعانى الحنو والعطف والرحمة والتعاون والشعور بالمسئولية والتقليد وغيرها... كل ذلك يعرفه الطفل ويتعوده أول ما يعرف ويتعود من السلوك. وسيظل متأثراً بهذه الصور التى انطبعت فى نفسه منذ الصغر لتظهر على سلوكه عند الكبر، فمن شب على شيء شاب عليه، والأسر مختلفة فى معان كثيرة، منها المحافظة وغير المحافظة، ومنها المستقرة الوادعة والمضطربة المتنازعة، ومنها الغنية والفقيرة، وهكذا. ولكل من ذلك أثره على الناشيء، ويتحكم فى تحديد الهدف من تربيته، والوسيلة التى يربى عليها والمادة التى يتلقاها.

والمدرسة تتلقى الطفل بعد سنوات قضاها فى أحضان والديه، فهو يعيش فيها فى مجتمع أكبر نسبياً من مجتمع الأسرة، والمعلم يحل محل والديه، والتلاميذ محل إخوته، والمعانى الاجتماعية التى تفتحت عليها عينه فى البيت تكبر وتنضج فى المدرسة، وقد تتشكل بشكل آخر، أو تستبدل بها معان أخر، ذلك أن المعلم ليس كأبيه فى كل شيء، فالرحمة والعطف والحنو والتسامح والتدليل أشياء يفتقدها الطفل، أو يفتقد كثيراً منها في المدرسة، وطباع التلاميذ، وهم كثيرون، مختلفة، قد يصادف، بل سيصادف حتماً، منها ما لم يصادفه فى أخوته، والصفات التى يقلد فيها معلمه وزملاءه تختلف، ولو إلى حد ما، عن التى كان يجدها فى الأسرة، والمدرسة مرحلة انتقال يتأهل بها الناشيء ليواجه المجتمع الأكبر فى الإقليم والوطن والعالم كله، بعد أن كان محصوراً بين جدران البيت ومحيط الأسرة، والمدرسة تتلقى الطفل فى سن مبكرة يكون فيها ما يزال قابلاً بسهولة للتأثر بمن حوله، بل إن هذا التأثر يزداد قوة، لأن العواطف عند الجماعة أقوى من العاطفة الفردية، والتقليد فيها أسرع من التقليد الفردى، وللمدرسة قوانينها ونظمها الصارمة التى يجب احترامها ويقل التسامح فى مخالفتها، كل ذلك لا بد من التنبه له لبيان مدى تأثير المدرسة على حياة النشء.

وفى المجتمع الواسع بعد البيت والمدرسة يتأثر الناشىء بالإذاعة المرئية وغير المرئية، وبالصحافة والمسرح ودور اللهو، وبالمكتبات العامة وقاعات المحاضرات، وبالمعارض والأسواق وأماكن السياحة ومراكز الثقافة المختلفة ودور العبادة والوسائل الأخرى، وكذلك يتأثر طوعًا أو كرهًا بالقوانين التى تحكمه. وكل ذلك على اختلاف ألوانه لا بد من مراعاته فى التربية، وفى الحكم على سلوك الطفل.

ويتلخص أثر البيئة، كما يقول المربون، فى الإنسان فى أمرين، أولهما إيجابى، وهو إيقاظ ما كمن فى الكائن الحى من صفاته الوراثية، وثانيهما سلبى، وهو إضعاف وتعجيز صفة بسَلْبِ الفرصة التى كانت تنميها وتقويها[1].

* * *

(١) المجتمع العربى للمدارس الثانوية – طبعة ثانية ١٩٦٦ ص٣٩.

الفصل الثانى

فى المـــربـى

أقصد بالمربى الشخص الذى يتولى تربية الناشىء ليهذب غرائزه وينّمى مواهبه ويقوم فكره وخلقه. وأظهر هؤلاء الأشخاص فى هذا الميدان هم الوالدون والمعلمون فى معاهد التعليم، إلى جانب المشرفين على أنواع النشاط الثقافى فى الأجهزة المختلفة، كما أشرنا إلى ذلك فى البيئة.

ويشرف على هؤلاء جميعًا أولو الأمر، وتيسر لهم السبل، وتتولى رعاية من يعجز عنها هؤلاء، كما قال ابن حزم فى كتابه «الإحكام» فى مسئولية الدولة عن ضمان التعليم لكل فرد حيث يقول: يجبر الإمام أزواج النساء وسادات الأرقاء على تعليمهم ما ذكرنا «الحلال والحرام» إما بأنفسهم وإما بالإباحة لهم لقاء من يعلمهم. وفرض على الإمام أن يأخذ الناس بذلك، وأن يرتب أقوامًا لتعليم الجهال. وقال القاضى من أئمة الحنابلة: يجب على الإمام أن يتعاهد المعلم والمتعلم لذلك «تعليم الشريعة» ويرزقهما من بيت المال، لأن فى ذلك قوامًا للدين. اهـ. فتربية الأولاد مهمة جماعية لا بد أن يتضافر عليها كل فرد وهيئة فى المجتمع، ولا بد أن يتخذ لذلك منهج يؤدى إلى الغرض المطلوب، وألا يقصر فى واجبه أحد. وسيأتى توضيح ذلك.

إن الحكومات لا بد أن تتدخل بشكل قوى فى تربية النشء، فهى نائبة عن الأمم فى رعاية مصالحها والقيام بما لا يستطيع الأفراد القيام به، وقديمًا كان للحكومات هذا التدخل، حتى فى داخل المنازل. ففى إسبرطة كانت الأم تربى طفلها حتى السابعة من عمره تحت إشراف الحكومة، وبعدها تنتزعه من أبويه وتتولى رعايته من جميع النواحى، وتدخل أولو الأمر فى الإسلام فى التعليم أحيانًا لمصلحة الجماعة أو لخدمة العهد القائم، فقد عيَّن معاوية قصاصًا يجلس للناس بعد صلاة الفجر وبين صلاتى المغرب والعشاء ليدعو له ولأهل الشام

بواسطة القصص. وعندما شيد العباسيون دار الحكمة فى بغداد عيّنوا لها جلّة العلماء ورتبوا لهم الأجور. وكان لهم كامل الحق فى توجيه أمورها كما يريدون. وكما فعل الفاطميون فى الجامع الأزهر لنشر المذهب الشيعى. وحدث مثل ذلك فى المدارس، فنظام الملك كان يحارب بمدارسه المذهب الشيعى الذى كان منتشراً فى عهد البوهيين، وأمر بأن يبعد عن المدارس كل من يعتنق هذا المذهب، وكل الأمم الحديثة تتدخل حكومتها فى التربية، وبعض المجتمعات القديمة كان يحتم على الآباء إهمال الاولاد أو إعدامهم فى حالات خاصة، فكانت اسبرطة تحتم على الآباء إعدام أولادهم الضعاف أو المشوهين أو المرضى عقب ولادتهم، أو تركهم فى القفار طعاماً للوحوش والطيور، وكانت الأم تلجأ إلى مختلف الوسائل لتحقيق هذه الغاية. وللتأكد من صلاحية ولدها للحياة كانت تغمسه فى دنٍّ من النبيذ وتتركه مغموساً وقْتًا ما، فإن عاش بعد ذلك دل هذا على قوة بنيته واستحقاقه للتربية، وإن مات تخلص المجتمع من كائن ضعيف. وكان هذا النظام أو مثله سائداً فى أثينا وروما. وأقره فلاسفة اليونان وعلى رأسهم أفلاطون وأرسطو. ولكن أهم من يتولى تربية النشء هم الوالدون والمعلمون.

الوالـــدان:

الوالدان هما أول من يتلقى الطفل بالتربية الجسمية والخلقية معًا، ودورهما كبير جداً فى هذه الناحية. وأخطر من دور المعلم، ذلك أن الطفل يولد عجينة طرية فى يد والديه، يستطيعان أن يشكّلا منه ما يشاءان، وذلك بتهذيب غرائزه واكتشاف ميوله ووضعها على الخط الذى يرسمانه، وقلبه الطاهر – كما يقول الإمام الغزالى – جوهرة نفيسة وساذجة خالية من كل نقش وصورة، وهو قابل لكل ما ينقش عليه ومائل إلى كل ما يمال به إليه.

والطفل فى البيت يقضى أكثر أوقاته بين والديه، والجزء الذى يقضيه فى المدرسة، مهما طال، لا يقارن بالجزء الكبير الذى يصرفه فى البيت. ومن هنا يكون ما يتلقاه فيه أكبر مما يتلقاه فى المدرسة وأقوى من جهة الانطباعات

النفسية والاتجاهات الخلقية على الأخص، والحرص على تربية الطفل والإخلاص فى تنشئته لا يوجد في غير الأسرة كما يوجد فيها، فالوالدان يَعُدَّانه قطعة منهما، ويضحيان بأعز ما يملكانه فى سبيل راحته وسعادته، وهذا يؤدى إلى الإخلاص فى تربيته. وفى البيت تكون الدراسة الأولى للغرائز واكتشاف الميول، وهذه الدراسة أول تحقيق علمى يعمل عن الطفل يساعد على تعيين الطريق الصحيح لتربيته. ومنه يستطيع المعلم أن يواصل مهمته، يقول النبى – ﷺ – فى بيان خطر الوالدين على الطفل «كل مولود يولد على الفطرة، وإنما أبواه يهوِّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه»(١). وفى التعبير بالتهويد والتنصير والتمجيس ما يدل على تكلف ومشقة فى حمل الطفل على شىء من هذه الأديان، لكن الإسلام، لما فيه من اليسر والبساطة والوضوح بالقياس إليها، لا يحتاج إلى هذه المشقة، لملاءمته للفطرة السليمة، وقد تقدم الحديث عن الفطرة.

والأم بالذات لها دورها الخطير فى هذه التربية، وقد أقر ذلك علماء التربية والاجتماع، وشهدت بذلك وقائع التاريخ. ومن قول العظماء فى ذلك ما قاله شوقى:

قم ابن الأمهات على أساس ... ولا تبن الحصون ولا القلاعا
فهن يلدن للقصب المذاكى ... وهن يلدن للغاب السباعا

والمذاكى هى الخيل التى قد أتى عليها بعد قروحها سنة أو سنتان، والواحد مُذَكٌّ، ذكره القرطبى فى تفسيره(٢). والقصب مفردها قصبة، وهى ما يركز عند أقصى الغاية فى مجرى السباق، فمن سبق إليها أخذها واستحق الخطر، أى الرهن، فلذلك يقال: حاز قصب السبق واستولى على الأمد، أى الغاية، والقصبة هى ما استطالت من الجوهر فى تجويف. فمن سبق إليها فاز بها كما فى نهاية ابن الأثير. وقول حافظ:

الأم مدرسة إذا أعددتها ... أعددت شعبًا طيب الأعراق

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة.

(٢) ج٤ ص٣٠٨.

الأم روض إن تعهده الحيا ... بالسرى أوْرَق أيما إيراق
الأم أستاذ الأساتذة الأولى ... شغلت مآثرهم مدى الآفاق

وقول نابليون: إن المرأة التى تهز المهد بيمينها تهز العالم بشمالها، وقوله عندما سئل عن أهم حصن تحتمى به فرنسا ويخافه العدو: هو الأم الصالحة، التى تحسن القيام على أولادها، فتقدم للوطن رجالاً، الواجب ديدنهم، والوطن هدفهم، ونصرته دينهم الذى يعتنقون. وقول هتلر عند أمره بالاستعداد للحرب مبينًا دور المرأة فيها: خير خدمة للبلاد قراركن فى البيوت واجتهادكن فى تنظيم الجيل الجديد[1].

جاء فى مقال للكاتب الفرنسى «إيتين لامى» منشور بمجلة العالمين الفرنسية عدد سبتمبر ١٩٠١م عند الحديث على مقاومة الإسلام عن طريق تربية أولادهم فى المدارس المسيحية: إن تربية بنات المسلمين تربية مسيحية توجد للإسلام فى داخل حصنه المنيع عدوا لَدُودًا لا يمكن للرجل قهره، ومتى تغلبت المرأة تغير نظام الأسرة بالمرة، وأصبح فى قبضة تصرفها، ومن السهل على المرأة والحالة هذه أن تؤثر على إحساس زوجها وعقيدته، فتبعده عن الإسلام وتربى أولادها على غير دين أبيهم، وفى اليوم الذى تغذى الأم أبناءها بلبان هذه التربية تكون هذه المرأة قد تغلبت على الإسلام نفسه. اهـ[2].

---

(١) مجلة الأزهر شعبان ١٣٦٩هـ.

(٢) ممن تأثروا بأمهاتهم من العرب حاتم الطائى، وقد تقدم، ومن الأجانب:

١ - جيتة: تعلم من أمه صوغ الخيال فى صورة حية.

٢ - كرومويل: كانت أمه معروفة بالنشاط والذكاء الحاد ومواجهة النكبات بالصبر والتدبير، أهدت إلى بناتها الخمس ما ساعدهن على الزواج من رجال أكفاء، وذلك من كدِّ يدها، ولازمت ابنها كرومويل تراقبه فى صعود الخطر لسلم المجد الذى قفز إليه.

٣ - ليتسيا: أم نابليون، اعترف بأن سلطانها عليه كان شديداً، تعلم منها الطاعة والكبرياء والاقتصاد، لشدة ما عانته من الفقر، وكانت تمسك لأولادها العصا وتؤدبهم، وضربت نابليون بالسياط عاريًا لأنه استهزأ من عجوز دخلت على أمه، وشجعته أمه على الفرار من منفاه فى جزيرة «ألبا» إلى فرنسا بكلمات كلها حماسة، وكذلك أم جورج واشنطن، ربت أولادها الخمسة بعد موت أبيهم، وكان جورج فى الحادية عشرة من عمره. ويعترف «أديسون» المخترع=

وخطورة الأم على الأولاد لا تقتصر على مرحلة الطفولة، بل تصاحبهم عند الكبر، ونحن نعرف أثر ذلك واضحًا فى تشجيع أسماء بنت أبى بكر لابنها عبد الله بن الزبير فى مقاومة حصار الحجاج لمكة، حيث قالت له: عش كريمًا ومت كريمًا. ولما قال لها: أخاف أن يمثلوا بى قالت: وما يضر الشاة سلخها بعد ذبحها؟ لقد كانت هى نفسها على تمكن من الشجاعة سرت فى دماء ابنها منها، فعن أبى نوفل فى حديث أيام ابن الزبير: ثم أرسل - يعنى الحجاج الثقفى - إلى أمه أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها فأبت أن تأتيه، فأعاد عليها الرسول: لتأتينى أو لأبعثن إليك من يسحبك بقرونك، فأبت وقالت: والله لا آتى إليك حتى تبعث من يسحبنى بقرونى. فقال: ايتونى بسِبْتِيَّتِى، أو بِسْبَتَىَّ، فأخذ نعليه ثم انطلق يتوذف - يتبختر - حتى دخل عليها فقال: كيف رأيتنى صنعت بعدو الله؟ يعنى ابنها، قالت: رأيت أفسدت عليه دنياه وأفسد عليك آخرتك، بلغنى أنك تقول: يا ابن ذات النطاقين، أنا والله ذات النطاقين، أما أحدهما فكنت أرفع به طعام رسول الله - ﷺ - وطعام أبى، وأما الآخر فنطاق المرأة التى لا تستغنى عنه، أما إن رسول الله - ﷺ - حدثنا أن فى ثقيف كذابًا ومبيرًا، أما الكذاب فقد رأيناه، وأما المبير فلا إخالك إلا إياه، فقام ولم يراجعها. رواه مسلم[1] وزاد رزين: أن الحجاج قال: دخلت عليها لأحزنها فأحزنتنى. والسبتان: النعلان، وأصله من السبت - بكسر السين - وهى جلود البقر المدبوغة بالقرظ يعمل منها النعال، فالتسمية على الاتساع. والسبتيتان نسبة إليها. وقيل من السبت - بفتح السين - وهو حلق الشعر، لأن شعور الجلود ترمى عنها، ثم تعمل منها النعال. والمبير = المهلك. وأسماء كان سنها إذ ذاك مائة سنة، وكف بصرها، كما ذكره ابن عبد ربه فى العقد الفريد.

= الأمريكى الكبير بأن أمه سبب عظمته، وأم دوق ويلنجتون بطل معركة «واترلو» قريبة الشبه بأم نابليون خلقا وخلقا. ولويد جورج السياسى الانجليزى يدين لوالدته بنبوغه، ومثله الجنرال «بوث» واللورد «بركنهد» الوزير الانجليزى [من محاضرة لمحمد صبرى أبو علم].

(١) ج١٦ ص٩٩.

وكذلك الخنساء فى تشجيع أولادها يوم القادسية حيث قالت لهم: اعلموا أن الدار الآخرة خير من الدار الفانية، اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون، فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها، وجللت ناراً على أرواقها، فتيمموا وطيسها، وجالدوا رئيسها تظفروا بالغنم والكرامة. فى دار الخلد والمقامة، ولما استشهدوا جميعاً قالت: الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم، وأرجو أن يجمعنى ربى بهم فى مستقر رحمته. والرسيس = أول مس الحمّى.

وكذلك وصية أم عمارة بالجهاد يوم أحد، ووصية أروى لابنها، كما فى الطبقات الكبرى لابن سعد، ولا ننسى «هاجر» ورعايتها لإسماعيل فى وحدتها، وتكريم الله لها تكريماً خالداً على مدى التاريخ، والذى يجعل للمرأة هذه الخطورة أمور، منها:

١ – ملازمة الطفل لها أكثر من ملازمة أبيه له، لانشغاله بالعراك فى ميدان الحياة الواسع.

٢ – شدة حنو الأم على ولدها، لإحساسها بأنه قطعة منها، فهى أشد به التصاقاً، وهو إليها أشد ميلاً، كما أنه لسماع توجيهاتها أكثر استجابة، ومن هنا كانت لها الحضانة كما تقدم ذكره.

٣ – ما جبلت عليه المرأة من الصبر الشديد ومناسبة ذلك لخدمة الطفل والسهر عليه، والرجل فى هذا المجال يقل عن المرأة. يقول أبو حيان التوحيدى فى «المقابسات»: الأم شأنها فى الحى أعظم، وتدبيرها فى المباشرة أظهر، وشفقتها بحسب ضعف قوتها أكثر، والأب هو الفاعل الحسى أيضاً ولكن لا مباشرة له متصلة، ولا ولاية له متمادية، وإنما هو أول فقط، والأم حاملة واضعة، وفاطمة ومرضعة، وحاضنة ومربية، فالكلفة عليها أغلظ، وحسها للولد آنف، وهو بها أشغف[1].

(١) أبو حيان – أعلام العرب ص١٧، ١٨.

وإذا كان دور الأم بهذه الخطورة وجب عليها أن تتبع القواعد الصحيحة للتربية، وتتنبه إلى أى شيء يصدر منها، فهو مؤثر على الطفل حتمًا، فمرحلة الطفولة مرحلة تقليد خالص، كما أن نداء الطفل بالأسماء المدللة يؤثر على شخصيته كما تقدم، والأغانى التى ترددها أمامه إذا كانت ترقصه مثلاً وسيلة فعالة من وسائل التربية وتخطيط السلوك. كانت هند بنت عتبة ترقص ولدها معاوية بقولها:

إن بنى مُعْرِق كريم ... محبب فى أهله حليم
ليس بفحاش ولا لئيم ... ولا بطخرور ولا سئوم
صخر بنى فهر به زعيم ... لا يخلف الظن ولا يخيم

المعرق = أصل الشرف، الطخرور = من لا جلد عنده ولا ثبات، ومعنى لا يخيم لا يجبن. ومثل هذه الأقوال التى تقرع أذن الطفل فى وقت مبكر تبعث فيه صفات الرجولة، وتعلقه بهدف سام كبير. وقد مَرّ أنها كانت تعده ليسود غير قومه لا ليسود قومه فقط. وجاء فى أمالى القالىء[1] أن أم الفضل بنت الحرث الهلالية كانت ترقص ابنها عبد الله بن العباس وتقول:

ثكلت نفسى وثكلت بكرى ... إن لم يسد فهرا وغير فهر
بالحَسَب العِدّ وبذل الوفر ... حتى يوارى فى ضريح القبر

ومن هنا تظهر قيمة الأم المتعلمة الفاهمة الواعية، والأم المتدينة التى تنشىء ولدها على شاكلتها، والمرأة العربية كانت تجيد تربية أطفالها وتكيفهم حسب البيئة التى يعيشون فيها والمهام التى تنتظرهم. وكانت لها فى ذلك وصايا وقواعد منتزعة من واقع الحياة. يقول العقاد فى كتابه «الصديقة بنت الصديق»: إن المرأة العربية برعت فى أحوال الحمل والوضع، فقد سئلت فاطمة بنت الخَرْشَب – رويت عن أميمة أم تأبط شراً –: أى بنيك أفضل؟ فقالت: والله

(١) ج٢ ص١١٨.

لا أدرى، إنى ما حملت واحداً منهم تُضَعَا، ولا ولدته يَتْنًا، ولا أرضعته غَيْلاً، ولا منعته قَيْلاً، ولا أنمته تَئِدًا، ولا سقيته هَدَبَدًا، ولا أطعمته قبل رئة كبداً، ولا أبتُّه على ماقة. وروى مثل هذا الكلام عن ليلى بنت عبد الله بن الرحال بن شداد الأخيلية، لما سألها الحجاج عن ولدها[1].

تضعا = عقيب الحيض، ومثله الوُضْع. والتُّضْع بسكون الضاد، والحمل على أثر الحيض مكروه عند العرب خشية تلوث النطفة بالدم فى رأيهم – ومعنى يَتْنا منعكساً، فولادة المنعكس عسيرة، وقد تصاب عظامه، ومثله الأتن والوتن، كما فى كتاب «كنز الحفاظ فى كتاب تهذيب الألفاظ» لأبى يوسف يعقوب بن إسحق السكيت. ومعنى غيلاً: زمن الحمل، فأن اللبن يكون غير جيد، ومعنى قيلاً عند القيلولة، فارضاع الطفل حينئذ ينقع غلته، ولا يعرضه لأذى الإرواء بالماء، وهو فى البادية قليل الصفاء. ومعنى تئدا أن يكون فى موضع صعب أو وخم يؤرقه ويؤذيه وخامة هوائه. ومعنى هدبدا اللبن المتكبد، الذى تجمَّد معظمه ولان بعضه، وهو دليل فساده، وإطعام الرئة والكبد صعب الهضم على معدة الطفل، والمبيت على ماقة أى غضب وكمد، وهو ضارٌّ بالرجال فضلاً عن الأطفال.

وكانت هذه العناية بالتربية نَبْعًا من تجاربها، يقول النبى – ﷺ – : «نساء قريش خير نساء ركبن الإبل، أحناه على طفل وأرعاه على زوج فى ذات يده»[2] وقد اشتهر فى العرب نساء أنجبن أبطالاً وضرب بهن المثل، ومنهن:

١ – ماوية بنت عبد مناة بن مالك، من تميم. وهى أم لقيط وحاجب وعلقمة ومعبد بنى زرارة بن عدس، وكلهم سادة.

٢ – فاطمة بنت الخُرْشُب الأنمارية، فقد ولدت لزياد العبسى الكَمَلَة، وهم: ربيع وقيس وأنس وعمارة، وكل منهم ساد فى الجاهلية، وقد سئلت: أى

(١) أعلام النساء لعمر كحالة.

(٢) رواه مسلم عن أبى هريرة ج١٦ ص٨٠.

بنيك أفضل؟ فقالت: الربيع بل قيس بل أنس بل عمارة، ثم قالت: ثكلتهم إن كنت أعلم أيهم أفضل، هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها.

٣ – أم البنين، وهى ابنة عمرو بن عامر الفارس البطل، ولدت مالكًا ملاعب الأسنة، وطفيلاً الفارس، وربيعة الكريم، الذى كان يسمى ربيع المقْترين، وسَلَميًا البطل المخاطر، ومعاوية الحكيم الحليم. وهى التى افتخر بها حفيدها الشاعر لبيد بن ربيعة أمام ملك الحيرة النعمان بن المنذر فى قوله:

نحو بنو أم البنين الأربعة ومن خيار عامر بن صعصعة

(هم خمسة لكن أخاه كان ميتًا حين افتخر)

٤ – عاتكة بنت هلال بن مرة، ولدت لعبد مناف بن قصى، هاشمًا وعبد شمس والمطلب، وهم سادة قريش.

٥ – خبيئة بنت رباح بن الأشل الغنوية، ولدت لجعفر بن كلاب، خالدًا ومالكًا وربيعة[١].

هذه هى قيمة الأم وأثرها فى تربية النشء، فالواجب عليها أن تليها بنفسها أو تشرف عليها بصدق، ولا تكلها إلى غيرها من خدم أو أقارب ونحوهم، فأن الأم أخلص فى التربية وأدق. وأوعى بما يجب للأطفال وما يصلح لهم، وصاحبة الحنان الذى لا يعوض. ذلك إلى جانب حماية النشء من الصور الشاذة التى تنطبع فى أذهانهم من الخادمة وغيرها ممن لا يحسون فيها رحمة، كمن تحاول إسكاتهم بالمزعجات والصور الخرافية والقصص الكاذب، ومهما كانت الخادم من الثقافة، ومهما كانت دور الحضانة من الإعداد فأن الحنان مفقود أو قاصر، وهو دفء لعاطفة الولد فى أشد الحاجة إليه فى هذه السن. يقول «أندريه موروا» فى كتابه «فن الحياة» الأم بالنسبة لطفلها بمثابة بعض الملائكة، وإذا سهرت عليه فأنها تكون منبع كل المسرات وكل الحياة. وإذا عنيت به مجرد عناية فأنها تظل الشخص الذى يمحو الألم ويمنح الغبطة. فهى الملجأ الأعظم

(١) كتاب المرأة فى الشعر الجاهلى – للدكتور أحمد الحوفى.

الذى يجلب الدفء والراحة والصبر والحب، وطفل الأم بالنسبة إليها بمثابة إله.... ثم الطفل إذا أسعده حظه بأم هى أم حقيقية تعلَّم منها فى باكورة حياته كيف يمكن أن يكون الحب كاملاً، وغير أنانى، وحب الأمومة يدل الطفل على أن الدنيا ليست فى جملتها وتفصيلها بالمنطوية على العداء، وأن من الممكن العثور دائماً على الحنان والعطف، وأن فى الدنيا أناساً يمكن منحهم الثقة التامة فى سذاجة وعدم تحفظ، ويمنحون كل شىء دون أن يطلبوا شيئاً فى مقابل ما يمنحون، ومن أعظم الأمور بدء الحياة فى مثل هذا الجو «ص٣٦، ٣٧».

المعلمـــون:

إن الوالدين يرعيان ولدهما فى السنوات الأولى، ثم يسلمانه إلى المعلم أو المؤدب بلغة العصر القديم، بعد أن يكون قد استقل إلى حد ما فى مظاهر الرعاية الجسمية. وإذا كان الوالدان ممن يحسنان مهنة التعليم كان تعليمه استمراراً لرعايته حتى يشب ويصير رجلاً، فالمعلم هو الذى يتابع مهمة الوالدين، ويتعهد الغرس الذى غرساه فعمله مكمل لعملهما، غير أن مهمته تكون أكبر فى ناحية العلم والمعرفة، وأثره يظهر فيهما أوضح من ظهوره فى ناحية الخلق والسلوك. ومهما يكن من شىء فلا بد من التعاون ليكمل كلٌّ نقص الآخر.

والمعلم فى المدرسة يعلم النشء ويظهر الثقافة ويربى الجسم أيضاً كما يربى عقله، ويربيه خلقياً بالقدوة والإرشاد، وذلك عن طريق الدروس الدينية والنشاط الاجتماعى والدينى فى المناسبات، وبغير ذلك من الوسائل. والذين باشروا تربية النشء فى صدر الإسلام فريقان، فريق خاص لا يتعهد الطفل ضمن مجموعة من التلاميذ فى المدرسة أو فى مكان آخر، ولكن يربيه فى منزل أبيه بمفرده أو مع إخوته. وكان الأغنياء هم الذين يستطيعون إحضار المربى لتربية أولادهم، وفريق عام يشرف على تربية أفراد فى المساجد والكتاتيب والمدارس. وكان يطلق على المربى الخاص اسم المؤدب، أخذاً من الأدب وهو الخلق أو المعرفة بثقافة العرب وغيرهم، ولا يتولى هذا العمل إلا المشهورون الذين يستحقون أن يَغْشَوْا قصور السلاطين والعظماء، ويكونون كأعضاء الأسرة فى التشريف والتكريم.

المعلم يقوم بمهمة سامية كبيرة، وهى واجبة على كل من يستطيع ذلك، وقد حرّم الدين الامتناع عنها نظراً لأهمية العلم والخلق فى تكوين المجتمع الصالح، قال تعالى: ﴿ **فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** ﴾ [التوبة: ١٢٢]. وقال: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ** ﴾ [آل عمران: ١٨٧]. وقال: ﴿ **وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة: ١٤٦]. وقال: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ** ﴾ [البقرة: ١٥٩].

ومع وجوب التعليم رغب فيه، وجعل للمعلمين شرفًا وفضلاً كبيراً، يقول النبى - ﷺ -: «لا حسد إلا فى اثنتين، رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته فى الحق، ورجل آتاه الله الحكمة، فهو يقضى بها ويعلمها»(١). ويقول: «من دل على خير فله مثل أجر فاعله»(٢) إلى غير ذلك من الأحاديث. وكان المربون موضع احترام الناس لشرفهم وشرف مهمتهم، وحظى بذلك على الأخص من قاموا بالتعليم حسبة لله فى المساجد. وقد نُصح أحد الخلفاء برسالة هامة جاء فيها: واعلم أن مواقع العلماء من ملكك مواقع السُّرج المتألقة والمصابيح المعلقة. وعلى قدر تعاهدك تبذل من الضياء، وتجلو بنورها الأشياء، وقال يحيى بن أكثم: قال لى الرشيد: ما أنبل المراتب؟ قلت: ما أنت فيه يا أمير المؤمنين. قال: فتعرف أجلَّ منى؟ قلت: لا، قال: لكنى أعرفه، رجل فى حلقة يقول: حدثنا فلان عن فلان عن رسول الله. قلت: يا أمير المؤمنين هذا خير منك وأنت ابن عم رسول الله وولى عهد المسلمين؟ قال: نعم، وذلك خير منى، لأن اسمه مقترن باسم رسول الله لا يموت أبداً، ونحن نموت ونفنى، والعلماء باقون ما بقى الدهر(٣).

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن ابن مسعود.

(٢) رواه مسلم عن أبى مسعود البدرى.

(٣) الآداب الشرعية لابن مفلح الحنبلى المتوفى سنة ٧٦٢هـ ج١.

وكانت منزلة المؤدبين فى أعلى منزلة خصوصًا إذا علّموا حسبة لله، كما قدمنا، لأنهم يعلّمون لوجه الله فى عفة وزهد وكرامة. لقد اجتمع علماء ما وراء النهر وأقاموا مأتم العلم، عندما بلغهم خبر بناء المدرسة النظامية فى بغداد، وقالوا: كان يشتغل بالعلم أرباب الهمم العلية والأنفس الزكية الذين يقصدون العلم لشرفه والكمال به، وإذا صار عليه أجرة تدانى إليه الأخسّاء وأرباب الكسل، فيكون ذلك سببًا لمهانته وضعفه[1]. غير أن بعض العلماء كان يزهد فى هذه الوظيفة بُعْدًا عن المناصب، وشَكا فى أموال السلاطين، ومنهم الخليل بن أحمد.

ومن المؤدبين المشهورين على بن الحسن الأحمر المتوفى سنة ١٩٤هـ مؤدب الأمين بن الرشيد، وعامر الشعبى والضحاك بن مزاحم المتوفى سنة ١٠٥هـ مؤدب أولاد عبد الملك بن مروان، ومحمد بن هشام الزهرى مؤدب ابن هشام بن عبد الملك، ويحيى بن خالد البرمكى والكسائى مؤدبًا الرشيد وابنه الأمين.

أما معلمو الكتاتيب فكانوا فى منزلة أقل، وقد عزف كثير عن تولى هذه المهمة وأصبحت عبارة «معلم صبيان» مثلاً يضرب للضعة والامتهان، غير أن منهم من كان موضع التقدير والاحترام كالكميت بن زيد وعبد الحميد الكاتب وقيس بن سعد[2].

ومن طرائف الأخبار عن معلمى الكتاتيب ما يقوله الجاحظ: مررت بمعلم صبيان وعنده عصا قصيرة وعصا طويلة وصولجان وكرة وطبل وبوق. فقلت له: ما هذا؟ فقال: عندى صغار أوباش، أقول لأحدهم: اقرأ لوحك، فيصفّر لى، فأضربه بالعصا القصيرة، فيتأخر فأضربه بالعصا الطويلة، فيفرّ من بين يدى فأضع الكرة فى الصولجان وأضربه فأشجُّه، فيقوم إلىَّ الصغار كلهم بالألواح، فأجعل الطبل فى عنقى والبوق فى فمى، وأضرب الطبل وأنفخ فى البوق، فيسمع أهل الدرب ذلك فيسارعون إلىَّ ويخلصوننى منهم[3]. لكن أمثال هذه الأخبار قد

---

(١) كشف الظنون ج١ ص١٥.
(٢) تاريخ التربية ص٢٠٠.
(٣) مجلة الوعى الإسلامى صفر ١٣٩٤هـ.

يكون مبالغًا فيها لتشويه صورة المعلمين للأولاد. وفى كتب الأدب والفكاهة كثير من هذه الافتراءات.

وكما تقدم كان المعلمون فى المساجد يؤدون واجبهم حسبة لله، وكانوا يكسبون من عمل يدهم، وذهبت طائفة من الفقهاء كالحنفية جميعهم وأحمد ابن حنبل وسفيان الثورى إلى أنه لا يجوز أن يأخذ المعلم أجرًا على تعليم القرآن والحديث[1] وقد رفض الحارث بن محمد أن يأخذ الرزق الذى رتبه له عمر بن عبد العزيز حينما أرسله ليعلم الناس بالبادية. والضحاك بن مزاحم المتوفى سنة ١٠٥هـ وعبد الله بن الحرث كانا معلمى أطفال ولا يأخذان أجرًا، ولم يرتب للمعلمين أجر إلا عندما كانوا يكلفون بذلك، إما كمؤدبين فى البيوت وإما كمدرسين فى المساجد لنشر مذهب معين أو للتحدث فى موضوع يهم الوالى – كما سبق بيانه فى عمل معاوية مع القصاص – وعندما أنشئت المدارس كالمدارس النظامية، ومع ذلك كان بعضهم يتعفف عن هذا العمل على الرغم من سخاء المكافأة.

وكانت الحالة المالية لمعلمى الكتاتيب سيئة، نظرًا لزهادة بعضهم فى الأجر، أو لعدم الإقبال عليهم، لمَا كان يشاع عن بعضهم من أقاويل تزهد الناس فيهم، أما المؤدبون لأولاد العظماء فكانت حالتهم المالية حسنة جدًا. وحسبك أن تعلم أن على بن الحسن الأحمر كان معلمًا للأمين بن هارون الرشيد، فلما دخل فرش له البيت بفرش حسن، وكان الخلفاء إذا أدخلوا مؤدبًا إلى أولادهم فجلس فى أول يوم أمروا بعد قيامه بحمل كل ما فى المجلس إلى منزله، مع ما يوصل به من الدواب ويوهب له، فلما أراد الأحمر أن ينصرف إلى منزله دُعِىَ من يحمل له ذلك، فقال الأحمر: والله ما يسع بيتى هذا، فما لى إلا غرفة لا يدخلها غيرى، فأمر الرشيد بشراء دار له وجارية، وحُمل على دابة وَوُهِبَ له غلام. يقول محمد ابن الجهم: كنا إذا أتينا الأحمر تلقانا الخدم، فندخل قصرًا من قصور الملوك، ويخرج علينا الأحمر وعليه ثياب الملوك[2].

---

(١) سيأتى توضيح ذلك.

(٢) تاريخ التربية ص٢١٦ – ٢٢٥.

الفصل الثالث

فى عمل المربى

هناك ثلاثة آراء فى طبيعة الطفل، هل هى خيرة أو شريرة أو قابلة للخيرية والشرية، الرأى الأول يقول: إن طبيعة الإنسان خيرة، وعليه سقراط وكذلك زينون الرواقى الذى يقول إن الطبيعة العامة خيِّرة لصدورها عن الله وهو خير، ولا يصدر عنه إلا الخير، فالإنسان – وهو أثر من آثار الطبيعة – كذلك خير، ومثل هؤلاء جان جاك روسو الفرنسى الذى كان يردد مثل هذا القول فى القرن الثامن عشر، ويرى أن يترك المربى الطفل حراً طليقًا[1].

والرأى الثانى يقول: إن طبيعة الإنسان شريرة، فتجب مصادرة ميوله ومعارضة نزعاته، بالحرمان من اللذة الدنيوية. وعلى هذا الرأى البراهمة والبوذيون، بناء على مذهبهم العام فى الزهد والاجتهاد فى التخلص من الحياة. وعليه أفلوطين وأبو العلاء المعرى الذى كان يردد ذلك كثيراً فى شعره، ومنه:

فظن بسائر الإخوان شراً ولا تأمن على سر فؤادا
فلو خبرتهم الجوزاء خُبْرِى لما طلعت مخافة أن تكادا

وقال أيضاً:

وفضيلة النوم الخروج بأهله عن عالم هو بالأذى مجبول

ومنه قول الآخر:

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى وصوّت إنسان فكدت أطير

والرأى الثالث يقول: إن الطفل يولد وهو قابل للخيرية والشرية. وهذا هو الرأى السديد الذى مال إليه الغزالى كما تقدم. وبناء على رأيه قال فى معرض كلامه عن رياضة الصبيان: فإن الطفل بجوهره خلق قابلاً للخير والشر، وإنما أبواه

---

(١) الأخلاق لجاد المولى وسالمان ص٦٧.

يميلان به إلى أحد الجانبين. وعلى هذا الرأى ابن خلدون، وإن كان يرى أن ميل الطفل إلى الخير أكثر من ميله إلى الشر، وقد نص على ذلك عند كلامه على أن من علامات الملك التنافس فى الخلال الحميدة وبالعكس، فقال: لما كان الملك طبيعيًا للإنسان لما فيه من طبيعة الاجتماع وكان الإنسان أقرب إلى خلال الخير منه إلى خلال الشر بأصل فطرته وقوته الناطقة العاقلة، لأن الشر إنما جاءه من قبل القوة الحيوانية التى فيه، وأما من حيث هو إنسان فهو إلى الخير وخلاله أقرب... اهـ.

ويؤيد هذا الرأى المختار قول الله تعالى: ﴿ **أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ** ﴾ [البلد: ٨-١٠]. وقوله: ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا** ﴾ [الشمس: ٧، ٨]. وقوله: ﴿ **إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا** ﴾ [الإنسان: ٣].

إن عمل المربى يتناول، ما يتأثر به الطفل من الوراثة والبيئة معًا، أى المجال الذاتى الباطنى، والمجال الخارجى الظاهر، وأساس عمله هو اكتشاف هذه المواهب الموروثة ومراقبة المؤثرات التى تؤثر فيه، ومحاولة الانتفاع بذلك فى توجيهه نحو الخير. كالبستانى الذى لايَدّ له فى خروج النبات من البذور ونمائه، فتلك مهمة قوة أخرى خارجة عن إرادته، وإنما كل ما يستطيعه هو وقايته مثلاً من العاصفة أن تكسره، ومن حرارة الشمس أن تجففه، ومن الحشرات والأيدى العابثة أن تمتد إليه.

إن مهمة المربى حيال المجال الباطنى صعبة، لأن الطفل كما قدمنا غُصْنٌ فى شجرة معمرة يحمل خصائصها ويتوارثها، وكل ما يستطيعه هو اكتشاف مواهبه واستعداداته ليستفيد منها ويوجهها الوجهة الصالحة، ويتجنب ما يعوق دفعها القوى الذى لا يغالب. ذلك أن بعض الموروثات تكون من الشدة والقوة بحيث لا تفيدها التربية، خصوصًا إذا كانت بطريق الكبت والعنف. وهو ما يعنيه قول بعضهم: الطبع يغلب التطبع. وما رواه البيهقى فى شعبه عن الأصمعى

قال: دخلت البادية فإذا بعجوز بين يديها شاة مقتولة وجرو ذئب مُقْع، فنظرت إليها فقالت: أتدرى ما هذا؟ قلت: لا، قالت: جرو ذئب أخذناه وأدخلناه بيتنا، فلما كبر قتل شاتنا، وقلت فى ذلك، قلت: ما هو؟ فأنشدت:

أكلت شويهتى وفجعت قلبى ... وأنت لشاتنا ولد ربيب
غذيت بدرها وربيت فينا ... فمن أنبأك أن أباك ذيب
إذا كان الطباع طباع سوء ... فلا أدب يفيد ولا أديب

ومهمة المربى حيال المجال الظاهر فى البيئة سهلة بالنسبة إلى المجال الباطنى، فهو يستطيع أن يعرف أى نوع من الناس والأشياء ينبغى أن يتأثر به، وإن كان ذلك يحتاج إلى جهد كبير، ذلك أن منابع التأثير ربما لا يتحكم فيها المربى أو يستطيع علمها، فهل يستطيع الوالد مثلاً أن يحيط بكل ما يتأثر به ولده، محادثات مع زملائه فى المدرسة، أو بما يطرق سمعه من أحاديث الناس فى الشوارع أو ما يراه من صور معروضة فى الطرق والصحف وغيرها؟ وهل المعلم يستطيع أن يعلم كل شىء يؤثر فى الطفل وهو فى بيت أبيه؟ ولكن مهما يكن من صعوبة الأمر فلا ينبغى أن يقعدنا ذلك عن القيام بواجبنا بقدر المستطاع. وسواء أكان الطفل يولد أميل إلى الخير أم إلى الشر أم هو إليهما على حد سواء، فإن المربى تقوم مهمته على الإفادة من غرائزه وميوله، وتكيفه بالبيئة على وجه يسلم به إلى الخير، ولا ينبغى أبداً أن نهمل عامل الوراثة فى التربية ونلقى الحمل كله على المربى، ومن قال: إن الطفل عجينة فجة فى يد والديه يستطيعان أن يشكلاه ويميلان به إلى حيث يريدان – لا ينسى أبداً عامل الوراثة فى التحكم فى سلوك الطفل. وحديث ولادته على الفطرة لا يلغى أثر الوراثة، بل يبين أهمية البيئة والدور الذى يقوم به المربى، أو يراد به الاهتمام بغرس العقيدة فى نفسه منذ الصغر، حتى تثبت فى نفسه ويشب عليها، والمربى قادر مع كل هذه الاعتبارات على خلق صورة وشكل لمادة لها خصائصها المعينة التى لا يَدَ له فيها.

الفصل الرابع
فى واجبات المربى

واجبات المربى كثيرة نقتصر على بعض منها فيما يلى :

١ – لا يستطيع المربى أن ينجح فى مهمته إلا إذا كان عالمًا بأصول التربية، مُلمًا بقواعدها الفنية، التى تهديه إلى وضع الشيء فى موضعه، واختيار الأسلوب المناسب، والمادة التى تتحملها طاقة الناشيء ، على ضوء اكتشاف المواهب وترويض المؤثرات، لاستخدامها فى التوجيه المطلوب .

والدراسات النفسية والتربوية، والإلمام بقواعد الصحة، ومعرفة العلاقة بين التأثرات النفسية والجسمية والعقلية لابد منها لبلوغ الغاية المرجوة من التربية .

والتربية – كما يقول ابن عبدون – صناعة تحتاج إلى معرفة ودربة ولطف، فهى كالرياضة للمهر الصعب الذى يحتاج إلى سياسة ولطف وتأنيس حتى يرتاض ويقبل التعليم – والمربى الفنى – كما يقول الغزالى – لا يشرك التلميذ الذكى مع الغبى فى التلقى فهو تقصير فى الذكى وإرهاق للغبى، وهو الذى يوجه التلميذ إلى العلم الذى يناسبه بعد اختباره ومراقبته، كما يذكر ابن جماعة[١] . وقد أرشد محمد بن الحسن تلميذه الإمام البخارى إلى أن يتعلم الحديث بدل الفقه، لأنه أليقَ به فصار فيه مقدما[٢] .

يقول الماوردى فى كتابه « أدب الدنيا والدين »[٣] : وينبغى أن يكون للعالم فراسة يتوسم بها المتعلم ليعرف مبلغ طاقته وقدر استحقاقه، ليعطيه ما يتحمله بذكائه أو يضعف عنه ببلادته . فإنه أروح للعالم وأنجح للمتعلم . اهـ.

ومما يدل على لزوم هذه الفنية للمعلم واهتمام الأولين بها، نصيحة الرشيد للأصمعى قبل أن يباشر عمله معه كمعلم أو جليس، قال : يا أبا عبد الملك،

---

(١) تذكرة السامع ص٥٧ .
(٢) تاريخ التربية ص١٩٠، ٢٨٧، ٢٨٨ .
(٣) ص٧٤ .

أنت أعلم منا ونحن أعقل منك، فلا تعلمنا فى ملا، ولا تسرع إلى تركيز فى خلا، واتركنا حتى نبتدئك بالسؤال، فإذا بلغت من الجواب قدر الاستحقاق فلا تزد، إلا أن نستدعى ذلك منك، وانظر إلى ما هو ألطف فى التأديب وأنصف فى التعليم، وأبلغ بأوجز لفظ غاية التقويم[1].

إن الجاهل بالقواعد الصحيحة للتربية لا يوفق فى مهمته، فقد يريد أن ينفع فيضر من حيث لا يدرى، والعقد النفسية والاضطرابات العصبية واتجاهات السلوك يرجع كثير منها إلى آثار انفعالات حصلت فى أيام الطفولة، نتيجة الجهل بأساليب التربية الصحيحة.

وإذا كان للمربين فى المدارس دراسات خاصة فى هذا المجال فالواجب أن يكون للآباء والأمهات قدر كبير منها، ووجوب ذلك فى حقهم آكد، وذلك لخطورة المرحلة التى يعيش فيها الناشىء بين أبويه، فهى الأساس الذى يقوم عليه بناء التربية، لا بد أن يوضع على قواعد علمية متينة حتى يُطْمأنَّ إلى ما يُشَاد فوقه من طوابق.

قرأت من فنية التربية أن تلميذاً لم ينهض من فراشه صباحًا ليذهب إلى المدرسة كعادته، فسألته أمه عن السبب فقال: إنى مريض، فلم تعنفه، ولكنها أظهرت له اهتمامها بمرضه وألزمته الفراش، ولما انتهى موعد الذهاب إلى المدرسة فطن أن أمه لن تؤاخذه على هذا الادعاء، فنهض من سريره، فأعادته أمه إليه لأن المرض يستلزم ملازمة الفراش، وكلما هم بالنهوض أعادته، حتى انتهى اليوم، فأحسَّ التلميذ بشدة الضيق وكان يريد أن يمضى هذا اليوم فى اللعب، فلما كان الصباح التالى بكرَّ ناهضا وذهب إلى المدرسة من تلقاء نفسه، لأن المدرسة على ما فيها أهون من ملازمة السرير.

ولحرص العقلاء المقدرين لخطورة هذه المرحلة على مصلحة أولادهم باشروا تربيتهم بأنفسهم ولم يسلموهم إلى الخدم، فإن لم تسعفهم الظروف للقيام

---

(١) أدب الدنيا والدين ص٧٥.

بذلك أستعانوا بمربيات متخصصات فى هذا الفن، أعددن إعداداً مناسباً فى معاهد أنشئت لهذا الغرض. وهؤلاء المربيات فى المنزلة الأدبية والمادية قد يَفُقْنَ غيرهن بكثير، والواجب أن تدرس مبادىء التربية للجنسين معا قبل إقدامهما على الزواج.

٢ – المربى – وبخاصة المعلم – لا بد أن يكون ذا مقدرة علمية فى النوع الذى يعلمه للأولاد على الأقل، – إلى جانب خبرته الفنية – متمكناً من كل ما يريد أن ينقله إليهم من علم ويعطيهم من توجيه، وأن يكون مستعداً للإجابة على الأسئلة الموجهة إليه، وما أكثرها لدى الأطفال والمراهقين المولعين بالاستطلاع، على أن هناك مسائل شائكة كالتى تتعلق بالجنس، واللباقة هنا عليها معول كبير. وإذا كان السؤال يمس حكما شرعيًا يهم المراهقين والمراهقات فلا بد من الإجابة الصحيحة بالأسلوب الحكيم، ولا حياء فى الدين كما قررته السنة الصحيحة. فعن عائشة قالت: نعم النساء نساء الأنصار لم يكن يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى الدين[١].

والمعلم بهذا يجب أن يكون على ثقافة واسعة لمواجهة الأسئلة التى يلح الناشىء فى طلب الجواب عنها، وعلى المعلم إذا لم يستطيع الإجابة الشافية أن يقوله فى صراحة: لا أدرى، فذلك أولى من تضليل السائل بالأجوبة الخطأ، لأن وقوفه عند حد علمه يربى فى الناشىء خلق الأمانة، ويعوده الدقة، ويكسبه ثقة فى معلمه. تلك الثقة التى تفقد حتماً لو تلقى جواباً ظهر له بطلانه بعد، والثقة من أهم العوامل فى استجابة المتعلم إلى معلمه. وقد سئل النبى ﷺ عن خير البقاع فى الأرض وشرها فقال: لا أدرى حتى نزل جبريل فسأله فقال: لا أدرى إلى أن علمه من الله عز وجل أن خير البقاع المساجد وشرها الأسواق، رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والحاكم وصححه من حديث ابن عمر[٢]. وروى عنه أنه قال: «العلم ثلاثة، كتاب ناطق وسنة قائمة ولا أدرى» رواه مالك موقوفاً على ابن عمر.

---

(١) رواه البخارى ومسلم.

(٢) الإحياء ج١ ص٦٢.

ورواه أبو داود وابن ماجه مرفوعاً[1]. وورد عنه أنه قال: «ما أدرى أعزير نبى أو لا، وما أدرى أتُبَّعٌ ملعون أم لا، وما أدرى ذو القرنين نبى أم لا» رواه أبو داود والحاكم وصححه من حديث أبى هريرة، وروى عن الإمام على أنه قال: وما أبردها على القلب إذا سئل أحدكم فيما لا يعلم أن يقول: الله أعلم[2] وكتب سليمان إلى أبى الدرداء - وقد آخى النبى بينهما - يا أخى بلغنا أنك قعدت طبيباً تداوى المرضى، فانظر إن كنت طبيباً فتكلم، فإن كلامك شفاء، وإن كنت متطبباً فالله الله لا تقتل مسلماً. وقال ابن مسعود: جُنَّة العالم لا أدرى، فإن أخطأها فقد أصيبت مقاتله، ومن الفقهاء والأئمة من كان يقول: لا أدرى، أكثر من قوله: أدرى، منهم سفيان الثورى ومالك وأحمد بن حنبل والفضيل بن عياض وبشر ابن الحارث[3].

٣ - وأقوى طريق يصل إلى نفس الناشىء هو القدوة من الوالد والمعلم، لأن النفوس جبلت على تقليد الصغير للكبير والضعيف للقوى، والناشىء يرى فى مربيه المثل الأعلى، وهو فى سنه المبكرة أسرع إلى التقليد، وأقوى استجابة لما يوحى به المربى، كما أن ما يتلقاه عن هذا الطريق يكون أرسخ فى ذهنه ونفسه، لأنه تسرب إليه بطريقة تلقائية، ولإيمان الصغير بصدق ما يعمله المربى وصحته وفائدته، لأنه يمارسه ويرتضيه، وكثيراً ما يكون الصغير صورة مصغرة لأبيه وعنوانًا واضحًا على سلوكه. ومن قول الحكماء فى ذلك. الولد سر أبيه، ومن يشابه أبه فما ظلم، وما أشبه حجل الجبال بألوان صخرها

رأيت صلاح المرء يصلح أهله ويفسدهم رب الفساد إذا فسد[4]

وكان رسول الله ﷺ أعظم قدوة فى العلم والخلق، لأن علمه من الله وخلقه القرآن، وهو هدى الله. قال تعالى: ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ** ﴾ [الأحزاب: ٢١] وقد أدرك الأولون خطر

---

(١) المصدر السابق ص٦١.
(٢) أدب الدنيا والدين ص٦٦.
(٣) الإحياء ج١ ص٦١، ٦٢.
(٤) العقد الفريد ج١ ص١٩٣، ٢٤٩.

القدوة ودور المعلم فيها فأوصوا أن يختار المربى من النماذج الطيبة علماً وخلقاً، وإذا كانت الثقة أغلى ما يحرص عليه المربى وأقوى عامل فى التأثير على الناشيء كان الواجب أن يحرص عليها، فيضم إلى متانة العلم متانة الخلق، كما يجب أن يعلم الوالد أن تدينه يورث البركة له ولأولاده حتى تبلغ السابع منهم، وذلك إما مكافأة من الله له أن يرى أثر تدينه فى أولاده. وإما بتقليد الأولاد له ونشوئهم على مثاله، فيأتيهم الخير والبركة بكسبهم وسلوكهم. قال تعالى فى شأن الغلامين اللذين أقام الخضر جدارهما ليحفظ لهما الكنز ﴿ **وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا** ﴾ [الكهف : ٨٢] وذكر المفسرون أنه كان الجد السابع، وأخرج الإمام أحمد عن وهب أن الرب قال فى بعض ما يقوله لبنى إسرائيل : إنى إذا أُطعْت رضيت، وإذا رضيت باركت، وليس لبركتى نهاية، وإذا عُصيت غضبت، وإذا غضبت لعنت، ولعنتى تبلغ السابع من الولد[1].

إن العلماء لم يرتضوا أن يكون سلوك المربى متناقضاً مع علمه، لأن ذلك يشكك المتعلم فى قيمة ما يعلمه إياه، قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ** ﴾ [الصف : ٢، ٣]، وقال : ﴿ **أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ** ﴾ [البقرة : ٤٤] وقال تعالى إخباراً عن شعيب ﴿ **وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ** ﴾ [هود : ٨٨] وورد عن النبى ﷺ أنه قال : « يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحا، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون : يا فلان مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول : بلى، كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه »[2]. والأقتاب هى الأمعاء، واحدها قِتْب، ومعنى تندلق تخرج، وقال : « مررت ليلة أسرى بى بأقوام تقرض شفاههم بمقاريض من نار، فقلت : من أنتم؟ فقالوا : كنا نأمر بالخير ولا نأتيه، وننهى عن الشر ونأتيه »[3].

---

(١) الزواجر لابن حجر الهيتمى ص١٤.

(٢) رواه البخارى ومسلم عن أسامة بن زيد بن حارثة.

(٣) رواه ابن حبان عن أنس.

ويقول الحسن: لا تكن ممن يجمع علم العلماء وطرائف الحكماء ويجرى في العمل مجرى السفهاء. ويقول ابن المقفع: معلم نفسه أحق بالتفضيل من معلم الناس. وقال عمرو بن عتبة لمعلم ولده: ليكن أول إصلاحك لولدى إصلاحك لنفسك، فإن أعينهم معقودة بعينك، فالحسن عندهم ما استحسنت، والقبيح لديهم ما تركت [نسب مثلها فى عيون الأخبار لابن قتيبة ج٢ ص١٦٦ إلى عتبة بن أبى سفيان] وقال مالك بن دينار: إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب كما يزل المطر عن الصفا، وقال الشاعر:

يا واعظ الناس قد أصبحت متهما ... إذ عبت منهم أموراً أنت تأتيها
أصبحت تنصحهم بالوعظ مجتهدا ... والموبقات لعمرى أنت جانيها
تعيب دنيا وناساً راغبين لها ... وأنت أكثر منهم رغبة فيها

وقال أبو الأسود الدؤلى «المتوفى سنة ٦٩هـ»:

يا أيها الرجل المعلم غيره ... هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذى السقام وذى الضنى ... كيما يصح به وأنت سقيم
ما زلت تلقح بالرشاد عقولنا ... عظة وأنت من الرشاد عقيم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل ما تقول ويقتدى ... بالقول منك وينفع التعليم
لا تنه عن خلق وتأتى مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم[1]

وقد قرر العلماء أن وزر العالم فى معاصيه أكبر من وزر الجاهل. إذ يزل بزلته عالم كثير، وفى الحديث الشريف «ومن سَنَّ سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[2]. ولذلك يقول على رضى الله عنه: قصم ظهرى رجلان، عالم متهتك وجاهل متنسك، فالجاهل يغر الناس بتنسكه، والعالم يغرهم بتهتكه، وإذا ارتضى بعض الناس قول القائل:

---

(١) سراج الملوك للطرطوشى ص٢١٧ والإحياء ج١ ص٥٦.
(٢) رواه مسلم عن جرير.

فلا ينبغي أن يكون ذلك إلا للكبار العقلاء الذين يفرقون بين الحق والباطل والخير والشر، وبين القول وقائله، وأما الأطفال فليست عندهم هذه المقدرة، فهم يحسبون بل يعتقدون أن عمل المربي خير وصواب على طول الخط. على أن الأكثرية من المربين رفضوا هذا القول وقالوا: من قال ولا يعمل فقد مكر، ومن أمر بما لا يأتمر فقد خدع، ومن أسر غير ما يظهر فقد نافق، والمكر والخديعة والنفاق، رذائل نهى عنها الدين.

وقد نبه العلماء إلى خطورة انتقاش ما يصدر عن الوالدين عامة في أذهان الأولاد وتقليدهم فيه ونشأتهم عليه، فعن عبد الله بن عامر قال: دعتني أمي يومًا ورسول الله ﷺ قاعد في بيتنا، فقالت: ها، تعال أعطيك، فقال لها رسول الله «ما أردت أن تعطيه»؟ فقالت: أردت أن أعطيه تمرًا، فقال لها «أما إنك لو لم تعطيه شيئًا كتبت عليك كذبة»[1]. ولهذا يجب على المربي أن يتجنب الألفاظ القبيحة، فإن ذلك يسقط هيبته، كما أن الطفل يتعودها ويستحسنها، لأن مربيه استحسنها. يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه، بَنْسُوا عن البيوت لا تُطَمُّ امرأة أو صبي يسمع كلامكم. فهو يأمر المتحدثين المتشاجرين أن يبتعدوا عن البيوت حتى لا يتأثر النساء والصبية بما يسمعونه منهم من لغو ورفث. ومعنى لا تطم لا تزاغ ولا تغلب بكلمة تسمعها من الرفث، وأصله من طمَّ الشيء إذا عظم، وطم الماء إذا كثر «نهاية ابن الأثير».

وليكن المربي عفيف النفس إلى جانب عفة القول، قائمًا بالعدل محافظًا على كرامته، منظمًا في عمله، ليكسب احترام تلاميذه، يعجبني في هذا قول ابن عبد العزيز القاضي:

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والبيهقي وهو حسن.

يقـولون لى فـيك انقبـاض وإنما ... رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من داناهمو هان عندهم ... ومن أكرمته عزة النفس أكرما
ولم أقض حق العلم إن كان كلما ... بدا طمع صيرته لى سلما
وما كل برق لاح لى يستفزنى ... ولا كل من لاقيت أرضاه منعما
إذا قيل هذا منهل قلت قد أرى ... ولكن نفس الحر تحتمل الظما
انهنهها عن بعض ما لا يشينها ... مخافة أقوال العدا : فيم أولما
ولم أبتذل فى خدمة العلم مهجتى ... لأخدم من لاقيت لكن لأخدما
أأشقى به غرسا وأجنيه ذلة ... إذًا فاتباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظموه فى النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهان ودنسوا ... محياه بالأطماع حتى تجهما[1]

وهناك واجبات أخرى تخص المربى ستأتى فى الحديث عن أسلوب التربية.

* * *

(١) أدب الدنيا والدين ص٧٦، ونسبها السفارينى فى غذاء الألباب ج١ ص٤١ للقاضى أبى الحسن الجرجانى.

الفصل الخامس
فى مادة التربية

قدمنا أن التربية تقوم على دعامتين أساسيتين، هما تقويم الفكر وتقويم الخلق، ومهمة الوالدين تظهر بوضوح فى تهذيب الخلق، كما أن مهمة العلم تظهر فيما يقوِّم الفكر، وقد عقد الغزالى فى كتابه الإحياء[1] فصلاً خاصًا برعاية الصبيان يقوم معظمه على الآداب والأخلاق، وعقد فى كتاب العلم من الإحياء[2] بابًا لأنواع العلوم التى يجب تعلمها ودرجة هذا الوجوب والطرق الصحيحة لتعليمها. وهذان النوعان من التربية فى حاجة إلى بعضهما، ولا يمكن الفَصْل بين ميدانيهما فصلاً تامًا. والتفريق فى نوع منهما نقص كبير فى التربية. فالعلم تكبح الأخلاق من جماحه، والضمير يعصم العلم من الانزلاق، وكان النبى ﷺ يعلم أصحابه العلم والخلق بالقول والعمل، وكان لهم أسوة حسنة فى كلا الأمرين.

ومما يدل على صلة العلم بالخلق وعدم استغناء أحدهما عن الآخر حرص المسلمين الأولين على تعليمهما لأولادهم معًا، والتركيز بنوع خاص على تقويم الخلق فهو الثمرة الممتازة للعلم. أوصى هشام بن عبد الملك سليمان الكلبى لما اتخذه مؤدبًا لولده فقال له: إن ابنى هذا هو جلدة ما بين عينىَّ، وقد وليتك تأديبه، فعليك بتقوى الله وأداء الأمانة فيه بخلال، أولها أنك مؤتمن عليه، والثانية أنا إمام ترجونى وتخافنى، والثالثة كلما ارتقى الغلام فى الأمور درجة ارتقيت معه، وفى هذه الخلال ما يرغبك فيما أوصيك به. إن أول ما آمرك به أن تأخذه بكتاب الله، وتقرئه فى كل يوم عشرًا، يحفظ حفظ رجل يريد التكسب به، وروِّه من الشعر أحسنه، ثم تخلل به فى أحياء العرب فخذ من صالح شعرهم هجاء ومديحًا، وبصِّره طرفًا من الحلال والحرام والخطب والمغازى ثم أجلسه كل يوم للناس ليتذكر[3].

---

(١) ج٣ ص٦٢.
(٢) ج١ ص١٣.
(٣) محاضرات الأدباء للأصبهانى ج١ ص٢٩.

وأوصى عبد الملك بن مروان مؤدب بنيه بقوله: علمهم الصدق كما تعلمهم القرآن، وجنّبهم السفلة فأنهم أسوأ الناس رِعَة – ورَعًا – وأقلهم أدبًا، وجنبهم الحشم فأنهم لهم مفسدة، وأحْفِ شعورهم تلغظ رقابهم، وأطعمهم اللحم يَقْوَوا . وعلمهم الشعر يمجدوا وينجدوا، ومرهم أن يستاكوا عرضا، ويمصوا الماء مصًا، ولا يَعُبُّوه عبا، وإذا احتجبت إلى أن تنالهم بأدب فليكن ذلك فى ستر لا يعلم به أحد من الفاشية فيهونوا عليه[1].

ووصَّى الرشيد الأحمر مؤدب ولده الأمين فقال: يا أحمر، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه، فصيِّر يدك عليه مبسوطة، وطاعته لك واجبة، فكن له حيث وضعك أمير المؤمنين، أقرئه القرآن، وعرفه الأخبار، وروه الأشعار، وعلمه السنن ، وبصّره بمواقع الكلام وبدئه، وامنعه من الضحك إلا فى أوقاته، وخذه بتعظيم مشايخ بنى هاشم إذا دخلوا عليه، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه، ولا تمرنَّ بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها، من غير أن تحزنه فتميت ذهنه، ولا تمعن فى مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه، وقوِّمه ما استطعت بالقرب والملاينة، فإنْ أباهما فعليك بالشدة والغلظة[2].

وقال عمرو بن عتبة لمؤدب ولده: ليكن أول إصلاحك لولدى إصلاحك لنفسك، فإن عيونهم معقودة بك، والحسن عندهم ما صنعت، والقبيح عندهم ما تركت. علمهم كتاب الله ولا تملّهم منه فيتركوه، ولا تتركهم منه فيهجروه، روِّهم من الحديث أشرفه، ومن الشعر أعفه، ولا تنقلهم من علم إلى علم حتى يحكموه، فإن ازدحام الكلام فى القلب مشغلة للفهم، وعلمهم سنن الحكماء، وجنبهم محادثة النساء، ولا تتكل على عذر منى لك فقد اتكلت على كفاية منك[3]. ونسبت هذه الوصية فى النجوم الزاهرة[4] وعيون الأخبار ومحاضرات

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص٣٩٩، تاريخ التربية ص٣٧.

(٢) المحاسن والمساوى للبيهقى ج٢ ص٢١٣ ومقدمة ابن خلدون ص٣٩٩ وتاريخ التربية ص٣٩.

(٣) العقد الفريد ج١ ص١٩٦ وتاريخ التربية ص٣٨.

(٤) ج١ ص١٢٣.

الأدباء إلى عتبة بن أبى سفيان، وهو أخو معاوية ولاه مصر بعد موت عمرو بن العاص.

والآداب التى يلقَّنها الناشىء كثيرة، وهى تتناول قوله وفعله وعقيدته وحاله، فى ظاهره وباطنه، ومأكله وملبسه ومسكنه وحركته وسكونه، فى أخلاقه الشخصية وسلوكه الاجتماعى، فى علاقته بربه وعلاقته بالناس، فى الأسرة والمدرسة والمجتمع. وبالجملة فى كل شأن من شئون حياته. ولا يمكن حصر هذه المواد لكثرتها، ولا يمكن ضبطها لاختلافها باختلاف البيئات والعصور. وأكبر كمية من هذه الآداب يتلقاها الطفل عن أبويه وأعضاء الأسرة، والباقى يتلقاه من المدرسة والمجتمع بمؤثراته المختلفة. والنبى ﷺ كان يربى أولاده ومن تحت رعايته ومن يحضر مجلسه ومن كلِّف بتبليغ الرسالة إليهم عامة، بالقول والعمل معًا، يروى البخارى ومسلم عن عمر بن أبى سلمة قال: كنت غلامًا فى حجر رسول الله ﷺ، فكانت يدى تطيش فى الصحفة، فقال لى رسول الله «يا غلام، سمِّ الله تعالى وكل بيمينك وكل مما يليك» وورد أن الحسن أخذ تمرة من الصدقة فجعلها فى فيه، فقال رسول الله له بالفارسية «كخ كخ، ارم بها أما علمت أنا لا نأكل الصدقة»(١). كلمة «كخ» بفتح الكاف وكسرها، وتسكن الخاء ويجوز كسرها مع التنوين، وهى كلمة يزجر بها الصبيان عن المستقذرات. قال الداودى: هى عجمية معربة(٢).

ويهمنا أن نذكر المربى بالاهتمام فى تربية الناشىء بما يؤهله لرسالته فى الحياة التى تتطلب أخلاق الرجولة والتحمل والمغامرة والروح الاجتماعية. وفى تربية البنت بما يتناسب مع مهمتها كأم وزوجة تسهم بعملها فى توريد الجيل الذى يضطلع بأعباء النهوض بالمجتمع، وأن يأخذ الأولاد بالتربية الدينية منذ نعومة أظافرهم ليشبوا عليها آنسين إليها متعشقين لها كما سيأتى فى حديث «مروا أولادكم بالصلاة...». وعن الربيِّع بنت معوذ قالت: أرسل رسول الله ﷺ

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة. (٢) النووى على مسلم ج٧ ص١٧٥.

غداة عاشوراء إلى قرى الأنصار التى حول المدينة «من كان أصبح صائمًا فليتم صومه، ومن كان أصبح مفطرًا فليتم بقية يومه» فكنا بعد ذلك نصومه ونصوِّمه صبياننا الصغار منهم، ونذهب إلى المسجد فنجعل لهم اللعبة من العهن - الصوف - فإذا بكى أحدهم من الطعام أعطيناها إياه حتى يكون عند الإفطار[1].

ومن أعظم النماذج فى تربية الأولاد تربية دينية شاملة. ما قصه القرآن الكريم عن لقمان الحكيم[2] حيث أوصى ولده بتصحيح العقيدة التى تأبى الشرك بالله، وبطاعة الله ورقابته وإصلاح نفسه وخلقه ومعاملاته مع الناس. قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِه وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ* وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ* وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ* يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ* يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ* وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ* وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ** ﴾ [لقمان: ١٣-١٩].

---

(١) رواه البخارى ومسلم.

(٢) قيل: هو ابن أخى إبراهيم، وقيل: كان ابن أخت أيوب أو ابن خالته، واتفق العلماء على أنه كان حكيمًا ولم يكن نبيًا، إلا عكرمة والشعبى فقالا بنبوته، وعلى هذا تكون الحكمة هى النبوة. وقيل: إنه كان عبدًا حبشيًا نجارًا، وقيل: كان خياطًا، وقيل: كان راعى غنم، وابنه قيل: اسمه ثاران، وقيل: مشكم، وقيل غير ذلك. وكل هذا لا يثبته دليل مقبول، ولا تهمنا معرفته.

ففى هذه الوصية نقط بارزة تبين أسس التربية الصحيحة، فيها العقيدة الصحيحة التى لا تشرك بالله، وفيها رقابة الله والشعور بالمسئولية لأن الله لا يخفى عليه شيء، وفيها أداء الواجب له أولاً بالصلاة، فهو أول من يؤدى الواجب له، وفيها أداء الواجب للمجتمع بالتوعية التى تنير لهم طريق العمل الصالح، مع التذرع بالصبر والعزم الصادق عند أداء هذا الواجب. وفيها مثل من الأخلاق الاجتماعية التى أساسها الشعور بالمساواة بين الناس، فالإنسان من جنسهم وأخ لهم ولا يجوز له أن يتعالى ويتكبر عليهم. وفيها صور من الكمال النفسى بالتوسط والاعتدال فى كل الأحوال، فى المشى وفى الحديث وفى غير ذلك من كل ما يحفظ عليه وقاره ويكمل شخصيته. فهى وصية جامعة دقيقة، من أجل ذلك كان لقمان حكيمًا، وكانت وصيته قرآنًا خالدًا يتلى على مر الدهور. ومن أراد أن يعرف تفصيل الآداب التى يربى عليها النشء فليرجع إلى كتب المسلمين أمثال الغزالى وابن سينا وابن مسكويه وغيرهم، ففيها آداب تصلح للكبار والصغار، وآداب يقتضيها عرف ذلك الزمان.

وقد أشار الغزالى فى كتابه «الإحياء» إلى نماذج من رياضة الصبيان، منها: عدم لبس الملابس التى توحى بالأنوثة والنعومة، ومقاطعة من يلبسونها والاجتهاد فى تعليم الصبى حكايات الأخيار ليغرس فى نفسه حبهم والاقتداء بهم، وعدم تعويده النوم فى الفراش الوثير حتى لا يألف النعومة، وأن يعوده الأخلاق الاجتماعية، بعدم الفخر على أقرانه بما يملكه والده أو بشيء من مطاعمه وملابسه، وأن يعف عما فى يد غيره من الأغنياء أو الفقراء كما يعوده الصدق وعدم الحلف، وأن يحسن الاستماع ولا يبدأ بالكلام إن كان معه من هو أكبر منه، وأن يصون لسانه عن اللغو والسب، ولا يخالط من يفعلون ذلك. وغير هذا كثير فى الكتب المشار إليها. وعمدة ذلك الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح.

والتربية العلمية تقوم على ما يقوى العقل وينمى المدارك من أنواع المعارف

المختلفة، سواء منها العلوم الدينية وغيرها من كل ما يوسع الأفق ويفيد الإنسان في نفسه وفي المحيط الذي يعيش فيه. وحصر هذه العلوم لا حاجة له، لأن البيئة والظروف لها حكمها في اختيار بعض ما هو موجود منها، وفي خلق أنواع جديدة تمس الحاجة إليها.

والإسلام فتح باب العلم على مصراعيه. وحث على الحرص على كل معرفة طيبة تنتج آثاراً حميدة، وقد اجتهد الغزالي في الإحياء[1] أن يحصر أنواع العلوم بتقسيمها إلى مجموعات، ليستطيع بالتصنيف أن يلم بها كلها. فذكر ألوانًا كثيرة بالنص وألوانًا أخرى بالعنوان الشامل. ولكني أيسّر عليك المهمة بذكر آيتين من القرآن الكريم تدرك منهما أن الله تعالى حث على جميع المعارف من طبيعة وكيمياء وفلك ونبات وحيوان وجيولوجيا ومعادن وطب وتاريخ واجتماع وفلسفة وكل ما يصل في نهايته إلى إدراك سر الوجود وتعميق الإيمان بالله سبحانه الذي يجب أن يُخشى سلطانه بطاعته وامتثال أوامره. قال تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ** ﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨].

وقد ذكر العلماء أن من التعليم ما هو فرض عين على كل إنسان، وهو تصحيح العقيدة ومعرفة المأمورات والمنهيات التي بها تصلح علاقته بربه وبالناس، ومنه ما هو فرض كفاية يقوم به بعض الناس لِسَدِّ حاجة المجتمع، كالحرف والصناعات التي هي قوام أمور الدنيا.

وكان تعليم القرآن وأحكام الشريعة هو الغالب في أيام النبي ﷺ لأنه مفتاح كل العلوم، أو هو الدستور الذي يسير على منهجه الناس في حياتهم

---

(١) ج١ ص١٢.

الجديدة، ولكن الدين لم يمنع – كما هو مرسوم فى القرآن – من تعلم العلوم الأخرى بل حث عليها . وفتحت الكتاتيب لتعليم الخط والحساب ومبادئ العلوم. وقد أرسل سيدنا عمر كتاباً إلى الأمصار يقول فيه: علموا أولادكم السباحة والفروسية. وفى رواية: ومروهم يثبوا على الخيل وثباً، ورووهم ما سار من المثل وحَسُنَ من الشعر[1].

وسيأتى فى بيان أسلوب التربية التوصية بالبدء بالأهم من هذه العلوم والتدرج فى تعليمها حسب السن والاستعداد، وعدم الخوض فى التفاصيل إلا بعد التمكن من أصل الموضوع واستعداد العقل لتحمل الخلافات، والموازنة بين الآراء، وأكرر التنبيه إلى وجوب العناية بالتربية الدينية علماً وعملاً كالعناية بالثقافة العقلية والتربية الجسمية أو أشد، لأنها صمام الأمن لكل تربية. ومن المؤسف أن تكون الموسيقى والأشغال اليدوية فى مناهج التعليم فى بعض بلاد المسلمين مواد أساسية يهتم بها، وتكون العلوم الدينية فى وضع أدنى من هذا الاهتمام، كما يؤسف أن تدرس علوم نظرية بحتة أو تعطى لها عناية كبيرة فى الوقت الذى يحتاج فيه إلى التعليم العملى فى ميادين تحتمها الظروف. كذلك من العيب أن نشغل الناشئة ونشغل أنفسنا بمعارف عميقة واسعة عن الدول الأجنبية، ونُهْمل إهمالاً واضحاً تاريخ بلادنا وأمتنا وأمجادنا الأصيلة.

ومن الخير أن أتحف الأبناء بهذه الحصيلة العلمية الخلقية التى جناها أحد التلاميذ النجباء من تعلمه طوال ثلاث وثلاثين سنة. ذلك أن حاتم بن علوان الأصم المتوفى سنة ٢٣٧هـ وهو أحد أقطاب الصوفية، مكث يطلب العلم على أستاذه شقيق البلخى هذه المدة، ولما سأله فى نهايتها عن حصيلته العلمية قال له: ثمان مسائل لا غير، وهى:

الأولى: نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد يحب محبوباً، فهو مع محبوبه إلى القبر، فإذا وصل إلى القبر فارقه، فجعلت الحسنات محبوبى، فإذا دخلت القبر دخل محبوبى معى.

---

(١) البيان والتبيين ج٢ ص٩٢.

الثانية: نظرت فى قول الله عز وجل: ﴿ **وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ونهى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ** ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١] فعلمت أن قوله سبحانه وتعالى هو الحق، فأجهدت نفسى على دفع الهوى حتى استقرت على طاعة الله.

والثالثة: نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل من معه شيء له قيمة ومقدار رفعه وحفظه، ثم نظرت إلى قول الله عز وجل: ﴿ **مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ** ﴾ [النحل: ٩٦] فكلما وقع معى شيء له قيمة ومقدار وجهته إلى الله ليبقى عنده محفوظًا.

والرابعة: نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد منهم يرجع إلى المال وإلى الحسب والشرف والنسب، فنظرت فيها فإذا هي لا شيء، ثم نظرت إلى قول الله تعالى: ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ [الحجرات: ١٣] فعملت فى التقوى حتى أكون عند الله كريمًا.

والخامسة: نظرت إلى هذا الخلق وهم يطعن بعضهم فى بعض ويلعن بعضهم بعضًا، وأصل هذا كله الحسد، ثم نظرت إلى قول الله عز وجل: ﴿ **نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾ [الزخرف: ٣٢] فتركت الحسد واجتنبت الخلق، وعلمت أن القسمة من عند الله سبحانه وتعالى فتركت عداوة الخلق.

والسادسة: نظرت إلى هذا الخلق يبغى بعضهم على بعض، ويقاتل بعضهم بعضًا، فرجعت إلى قول الله عز وجل: ﴿ **إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا** ﴾ [فاطر: ٦] فعاديته وحده، واجتهدت فى أخذ حذرى منه لأن الله تعالى شهيد عليه أنه عدو لى، فتركت عداوة الخلق غيره.

والسابعة: نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد منهم يطلب هذه الكسرة فيذل فيها نفسه ويدخل فيما لا يحل له، ثم نظرت إلى قوله تعالى:

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود : ٦] فاشتغلت بما لله تعالى وتركت ما لى عنده .

والثامنة : نظرت إلى هذا الخلق فرأيتهم كلهم متوكلين على مخلوق، هذا على ضيعته، وهذا على تجارته، وهذا على صحة بدنه، وكل مخلوق متوكل على مخلوق مثله، فرجعت إلى قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق : ٣] فتوكلت على الله عز وجل فهو حسبى[1] .

وليحذر المربى أبا أو أمًا أو معلمًا أن يلقن النشء معلومات خطأ، أو تسليتهم بحكايات خرافية، وليبعد كل البعد عن القصص الغريب الذى يروع الطفل، أو يضلله ويشوه أفكاره، كما يجب أن تتنبه الأم على الخصوص إلى خطر الأغانى التى ترقص بها الطفل وتدلّله، فإن سمعه إذا تعودها حفظها، والمعلومات التى تحويها ترسخ فى ذهنه ويصعب انتزاعها، وهو يتصرف على هديها إن عاجلاً وإن آجلاً، وخطر الإذاعات المسموعة والمرئية فى هذا المجال كبير. فلنجتهد أن تكون الأغانى والأناشيد حاملة معانى الرجولة والبطولة والعفة والأمانة والإخلاص والوفاء وطاعة الوالدين وحب الوطن وسائر الأخلاق الحميدة للفتى والفتاة. وقد مر شىء من أغانى العرب عند تدليل أطفالهم فى بحث المفاضلة بين الذكر والأنثى والوراثة.

كان الزبير يرقص ولده عروة ويقول :

أبيض من آل أبى عتيق ... مبارك من ولد الصديق
ألذُّه كما ألذ ريقى

وورد أن حليمة السعدية كانت ترقص محمداً ﷺ وهى تنشد :

يا رب إذ أعطيته فأبقه ... وأعله إلى العلا وأرقه
وادحض أباطيل العدا بحقه

---

(١) الإحياء ج١ ص٥٧ .

كما كانت الشيماء بنت حليمة ترقصه وتقول:

هـذا أخ لـي لـم تـلـده أمـي ... وليس من نسل أبي وعـمي
فـديتـه من مُـخْـولٍ مُـعمّ ... فـأنمه اللهم فـيـمـا تُنْمي

وزاد بعضهم:

يا ربنا أبق لنا مـحـمـداً ... حـتى أراه يافـعـا وأمـردا
ثم أراه سـيـداً مـسـودا
واكبت أعـاديه مـعـا والحسّدا ... وأعطه عـزمـا يدوم أبدا[1]

* * *

(١) الزرقاني على المواهب ج١ ص١٤٦.

الفصل السادس
فى مكان التربية

التربية فى شقيها العلمى والعملى، والثقافى والخلقى، يمكن أن تكون فى كل مكان، فى البيت والمدرسة والمسجد والطريق، فى الحل والترحال، وفى كل مكان، وكان النبى ﷺ حريصًا على خير أمته، فدعاهم ليلاً ونهارًا، وسرًا وإعلانًا، فى البيت والمسجد والطريق والسوق والحضر والسفر، يريد بهذا أن يبلغ ما أنزل إليه من ربه، وأن يبرىء ذمته من هذه المهمة. وقد أشهد أمته فى حجة الوداع أنه بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة، ولعلك تعرف أنه كان راكبًا ناقته ومردفًا خلفه عبد الله بن عباس، فالتفت إليه وقال «يا غلام ألا أعلمك كلمات»؟ قال: بلى. قال «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، وأعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك. رفعت الأقلام وجفت الصحف»(١).

وكانت التربية فى أول ظهور الإسلام قاصرة على البيوت. ثم اتخذ النبى ﷺ دار الأرقم بن أبى الأرقم مركزًا يتلقى فيه أصحابه، يبلغهم الوحى ويستقبل الراغبين فى الإسلام، وكان الآباء يربون أولادهم فى بيوتهم تربية علمية خلقية إذا كانوا ذوى مقدرة تؤهلهم لذلك. وكان هذا الوضع ظاهرًا فى عهد الصحابة والتابعين، أما فى العصور التى تلت ذلك فكانت التربية العلمية يقوم بها من لهم مقدرة علمية، أما غيرهم فكان الفقراء منهم يهملون تعليم أولادهم، وكان الأغنياء منهم إما غير مهتم بالعلم فلا يعنيه من أمره شيء، وإما مهتم فيحضر معلمًا لأولاده يتولاهم فى بيته، ولم تكن هناك مدارس بالمعنى المعروف الآن، إنما

---

(١) رواه الترمذى وحسنه.

كانت المساجد هى الأمكنة المفضلة للتعليم العام، غير أن روادها كان أكثرهم من الكبار، وقلَّ أن يختلف إليها الأطفال. وقد يكون ذلك للتوصية بتجنيبهم المساجد حرصًا على نظافتها وعدم التشويش فيها. روى واثلة بن الأسقع أن النبى ﷺ قال: «جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم، وشراءكم وبيعكم وخصوماتكم ورفع أصواتكم وإقامة حدودكم وسلَّ سيوفكم، واتخذوا على أبوابها المطاهر وجمِّروها فى الجمع» رواه ابن ماجه والطبرانى عن أبى الدرداء وأبى أمامة وواثلة، وإن كان هذا الحديث ضعيفًا كما قال العراقى وابن حجر، بل أورده ابن الجوزى فى الموضوعات، وقال عبد الحق: لا أصل له كما فى فيض القدير للمناوى على الجامع الصغير للسيوطى.

وكان بمسجد المدينة مجلس الإمام مالك المتوفى سنة ١٧٩هـ، وبمسجد البصرة مجلس الحسن البصرى المتوفى سنة ١١٠هـ، وكان لمسجد المنصور ببغداد وعمرو بن العاص بمصر مجالس لأفاضل العلماء، وكانت هناك زوايا يدرس فيها كبار العلماء.

وأول نوع عرف من المدارس هو الكتاتيب، وكان ذلك حوالى نهاية القرن الأول ومطلع القرن الثانى الهجرى، وكان بعضها ملحقًا بالمساجد، ومن أشهرها كتَّاب أبى القاسم البلخى، وكان به نحو ثلاثة آلاف. وازداد عدد الكتاتيب والمعلمين فى القرن الثانى، ثم نشأت المدارس العامة فى القرن الخامس الهجرى حين افتتحت فى يوم السبت العاشر من ذى القعدة سنة ٤٥٩هـ أول مدرسة ببغداد من مجموعة المدارس التى أنشأها نظام الملك المتوفى سنة ٤٨٥هـ، ودرس فيها مشاهير العلماء، ومنهم الغزالى، كما أنشأ نور الدين بالشام، وصلاح الدين الأيوبى بمصر مدارس متعددة.

ونظام الملك هو الوزير قوام الدين نظام الملك الطوسى الحسن بن على الذى وزر للسلطان ألب أرسلان السلجوقى وولده. قال الذهبى فى تاريخ الإسلام: ليس نظام الملك أول من بنى المدارس، فقد كانت المدرسة البيهقية بنيسابور قبل

أن يولد نظام الملك، والمدرسة السعيدية بنيسابور أيضًا بناها الأمير نصر بن سبكتكين أخو السلطان محمود عندما كان واليًا على نيسابور، ومدرسة ثالثة بنيسابور بناها أبو سعيد إسماعيل بن على بن المثنى الاستراباذى الواعظ الصوفى شيخ الخطيب، ومدرسة رابعة بنيسابور بنيت لأبى إسحاق الشيرازى. لكن قال التاج السبكى فى الطبقات الكبرى: يغلب على ظنى أن نظام الملك هو أول من رتب فى مدارسه المعاليم للطلبة. اهـ[1].

ومع وجود الكتاتيب والمدارس كان التعليم موجوداً بقصور الحكام والعظماء على يد المؤدبين الذين سمعوا بذلك لعنايتهم برواية الأدب وتعليم الآداب والأخلاق الكريمة، وكان يشترك مع المؤدب الوالدان فى وضع المنهج ومراقبة السلوك، كما كانت دور بعض العلماء مثابة للمتعلمين، كدار الغزالى ودار ابن سينا.

وكانت البوادى محط رحال كثير من عشاق الأدب العربى واللغة العربية الفصحى، وأرسل إليها العظماء أولادهم ليتربوا فيها، بعد أن أخذ اللحن يدب إلى ألسنتهم باختلاط العرب بغيرهم، وبعد أن غيرت المدنية أخلاق العرب الأصيلة. التى ما زال لها قوتها فى البادية. وكان يزيد بن معاوية مبعوث أبيه فى الصحراء لتعلم اللغة وتذوق فنون الأدب. ولما كان الوليد بن عبد الملك قد آثر الحاضرة على البادية، ولم يذهب ليتعلم فيها تسَّرب إليه اللحن، وفى ذلك يقول أبوه عبد الملك: أضرَّ بنا حبنا للوليد، فلم نرسله إلى البادية[2]. كما تلقى فيها فنون الأدب كثير ممن اشتهروا بالعلم، كالخليل بن أحمد المتوفى سنة ١٦٠هـ وبشار بن برد المتوفى سنة ١٦٧هـ والكسائى المتوفى سنة ١٨٢هـ والشافعى المتوفى سنة ٢٠٤هـ والرياشى المتوفى سنة ٢٥٧هـ.

ولما ظهرت الكتب وكثرت بدأ البعض يتعلم فيها دون حاجة إلى المعلم، وكان ذلك فى مطلع الدولة العباسية. وكان بائعو الكتب على قدر من الثقافة،

---

(١) إعلام الساجد بأحكام المساجد للزركشى. (٢) العقد الفريد ج٢ ص٢٣٩.

غير أن الكثيرين من العلماء لا يشجعون الأخذ مباشرة من الكتب والاستغناء بها عن المعلم، خصوصاً فى التربية الخلقية، التى تتدخل فيها شخصية المربى إلى حد كبير، ومن قولهم فى ذلك: من أعظم البلية تشييخ الصحيفة، أى التعلم منها كأنها شيخ. وقولهم: من لا شيخ له فلا دين له، ومن لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان....

وبالجملة فإن التربية لا تقتصر على مكان معين. وتعلُّل المقصرين بعدم تهيئة أمكنتها يدل على أنهم قوم اهتموا بالمظاهر والقشور، وكم نبغ فى التاريخ من عظماء ما اختلفوا إلى مدارس راقية مهيأة، تلقفوا العلم وما ضرهم من أى وعاء خرج، وفى أى مكان أخذ.

* * *

الفصل السابع
فى أسلوب التربية

يولد الأولاد وعندهم استعدادات طيبة وعوامل مشتركة تمكن الإفادة منها فى وضع قواعد عامة للتربية، يعيش عليها جميعهم أو أكثرهم. فهم يحمدون العدل ويمقتون الظلم، وفيهم غريزة حب الاستطلاع ، وعندهم ميل إلى الحياة الجماعية وخوف من القوى الطبيعية، ومن مثل هذه المدركات ينشأ كل أمر عظيم أو حسن، وظهر ذلك بشكل أوضح فى الحضارة والتقدم. والتربية فى الحقيقة هى حمل نفوس الأطفال على أن تخرج من أكمامها فى ضوء هذه المجالات الواسعة للحضارة الإنسانية، ودعوة كل الناشئين إلى الاشتراك فى هذه الحركة، وهذا هو الواجب الإيجابى للتربية والتعليم فى الجانب العلمى، أما الواجب السلبى فهو مقاومة الرذائل الناتجة عن الغرائز الأخرى والتى يرجع كثير منها إلى الأنانية وحب الذات، وهذا الواجب فى صورته السلبية لا يقل شأنًا عن الواجب فى صورته الإيجابية، ولا بد أن تستسلم الغرائز الشريرة إلى الغرائز الخيرة.

وعلى ضوء هذه المقدمة يمكن أن توضع قواعد عامة لأساليب التربية، ولا يمكن هنا الإتيان عليها كلها أو أكثرها، ولكنى سأعرض نماذج منها وأؤيدها ما استطعت بالنصوص الدينية أو أقوال علماء الإسلام.

إن أسلوب التربية فى حقيقته مزيج من واجبات المربى ومادة التربية والطريقة التى تكون بها، أو الوسيلة الناقلة للمادة من المربى، وقد أشرنا إلى شىء من واجبات المربى ومادة التربية فى العناوين السابقة، وإليكم بعض مظاهر هذا الأسلوب الذى يرجى من ورائه النجاح فى التربية.

أولاً: من تمام واجبات المربى أن يكون مخلصًا فى تربيته. وإخلاص الوالدين يحمل عليه غالبًا حب طبيعى للولد، إلى جانب رجاء المثوبة من الله

وإبراء الذمة من الواجب عليهم. وأما إخلاص المربى الآخر فيدفع إليه الخوف من الله إذا قصَّر فى عمله، ورجاء المثوبة على الهداية إلى الخير، وهو فى الواقع والدٌ روحى لمن يتولى تربيته. وقد ورد فى ذلك قول النبى ﷺ «إنما أنا لكم مثل الوالد لولده» رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه وابن حبان عن أبى هريرة، ورواه أبو يعلى عن عائشة، وفى سنده مصعب بن ثابت، وثقه ابن حبان وضعَّفه جماعة[1]. وقد قال النبى ﷺ «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه» رواه البيهقى عن عائشة، وهو حديث حسن، وفى رواية له عن كليب «إن الله يحب من العامل إذا عمل أن يحسن» وهو حسن[2].

وللإخلاص مظاهر، منها:

(أ) ألا يكتم العلم عمن يطلبه، ولا يبخل به على من يستحقه، وقد تقدم ذكر كتمان العلم، ويقول أبو الحسن البصرى الماوردى: إن البخل به لؤم وظلم، والمنع منه حسد وإثم، وكيف يسوغ لهم البخل بما يمنحوه جُوداً من غير بخل، وأوتوه عفواً من غير بذل، أم كيف يجوز لهم الشح بما إن بذلوه زاد ونما، وإن كتموه تناقص ووهى، ولو استَنَّ بذلك من تقدمهم لما وصل العلم إليهم، فليسمع هذا من يبخلون على التلاميذ ولا يبذلون إلا بأجر إضافى أو دروس خاصة.

(ب) أن يحرص على تعليم الناشىء كل ما يفيده حتى لو لم يتنبه إليه ولم يسأله، غير أن العلم إذا كان يضر بالمتعلم، أو لا تتحمله طاقته، فحجزه عنه أحكم، وقد قال علىٌ كرم اللهوجهه فى نهج البلاغة[3] مشيراً إلى صدره: ها، إن ههنا لعلمًا جَمًا لو أصبت له حملة، وقد قال الله تعالى: ﴿**وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا**﴾ [النساء: ٥] تنبيهًا على أن حفظ العلم عمن يفسده ويضره أولى، وليس الظلم فى إعطاء غير المستحق بأقل من الظلم فى منع

---

(١) المطالب العالية ج١ ص٣٧٩.
(٢) الألبانى على الجامع الصغير.
(٣) ج٢ ص١٧٢.

المستحق، والعلم كالدر لا ينبغى أن ينثر على من لا يعرف قيمته، كما يقول القائل[1]:

سأكتم علمى عن ذوى الجهل طاقتى ... ولا أنثر الدر النفيس على الغنم
فمن منح الجهال علما أضاعه ... ومن منع المستوجبين فقد ظلم

وقد نهى ابن عباس عمر عن الكلام وسط غوغاء الحجاج، وانتظر حتى خلص بأهل الفقه فى المدينة، ففى الصحيحين أن ابن عباس قال لعمر بن الخطاب: إن الموسم يجمع الرَّعاع والغوغاء، فأمهل حتى تقدم المدينة فتخلص بأهل الفقه، فقدمنا المدينة فقبل عمر مشورة ابن عباس فلم يتكلم بذلك حتى قدم المدينة، قال ابن الجوزى: وفى هذا تنبيه على ألا يودع العلم عند غير أهله، ولا يحدث لقليل الفهم ما لا يحتمله فهمه. والرعاع هم السفلة والغوغاء ونحو ذلك، وأصل الغوغاء صغار الجراد[2].

(جـ) أن يجتهد فى توضيح المسألة وتوصيلها إليه بكل الطرق الممكنة، وبوسائل الإيضاح المعروفة، حتى ترسخ فى ذهنه وتنطبع فى قلبه، ومن ذلك ضرب الأمثال ولفت الأنظار وجذب الانتباه، بالأسئلة والإشارات والخط وغير ذلك. وقد جاء فى القرآن الكريم من هذه الوسائل كثير، استعملها النبى ﷺ فى تعليم أمته. وتمثيله بركاب السفينة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وبالفراش المتهافت على النار فى اندفاع الناس إلى المعاصى والمهالك، وبالدار الحسنة إلا موضع لبنة فيها فى ختام الرسالات، وكذلك خطه على الأرض خطًا مستقيمًا وحوله خطوط مائلة، مفسرًا بها قول الله تعالى: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ**﴾ [الأنعام: ١٥٣]. وغير ذلك كثير يدل على حرصه على توضيح المسائل مستعينًا بالوسائل المتعددة، وحصر هذه الأمثال يطول.

---

(١) نسبها السفارينى إلى الشافعى: غذاء الألباب ج١ ص٤٤.

(٢) المصدر السابق ص٤٥.

ومن وسائل الإيضاح للأطفال بالذات أسلوب القصص، وفى القرآن الكريم والحديث النبوى كثير من القصص الحق. وقد تنتحل شخصيات تنسب إليها أقوال أو أفعال فى قصة من القصص، بل قد تنسب إلى حيوانات، كما فى كتاب كليلة ودمنة، والقصص الشعرية التى وضعها لافونتين الفرنسى، وهذه النسبة وإن كانت لونًا من الكذب إلا أنه لا ضرر فيه، والقصد منه حميد، فلا بأس به، وقد أورد الطرطوشى فى كتابه «سراج الملوك» حكاية بومتين خطبت إحداهما بنت الأخرى لابنها على صداق قدره مائة ضيعة خراب ستدفعها إذا دام واليهم عليهم، وكان ذلك بالموصل، وكانت هذه الحكاية فى مسامرة نديم لعبد الملك بن مروان. ففطن لها وجلس للمظالم وتفقد الولاة[1].

(د) ومن الإخلاص عدم ضياع وقت مخصص للتربية دون عمل يفيد منه الناشىء، وقد مَرَّ بك وصية الرشيد للأحمر مؤدب ولده التى جاء فيها: ولا تمرَّن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها، من غير أن تحزنه فتميت ذهنه. اهـ. ويكون الضياع بالانشغال عن التربية بعمل آخر كأكل أو قراءة صحف أو حديث.... أو باستعمال هذا الوقت لتعليم شيء آخر يطغى على التربية الدينية والخلقية المخصص لها هذا الوقت، كما يفعله كثير من المشتغلين بالتعليم.

(هـ) ومن الإخلاص فى التربية أن تلقى إليه المعلومات صحيحة، فإن أخطأ بادر إلى تصحيحها. جاءت امرأة إلى أبى الحسن الزيات فاستفتته، فأفتاها ثم مضت، وبعد قليل تغير وجهه فأسرع خلفها حافيًا حتى أدركها وصحح لها الفتوى، ولما سأله أصحابه وأخبرهم قالوا له: لو أمرتنا لفعلنا ذلك، قال: ما هى فى ذمة أحدكم، فلو فعلت ذلك فقد يتباطأ أحدكم فتفوته المرأة ولا يعلم وجهتها[2].

(و) ومن الإخلاص فى التربية مباشرته لها بنفسه، فلا يسلمها الوالدان إلى الخدم، ولا يكل المعلم إلى أحد التلاميذ تعليم الأطفال إيثارًا للراحة وتهاونًا

---

(١) حياة الحيوان للدميرى - بومة. (٢) تاريخ التربية ص٣٦.

فى الواجب، أما إن كان ذلك لتمرينه على التعليم واختبار مدى قدرته فلا بأس. وذلك يكون تحت إشرافه وتوجيهه، لا مستقلاً هو بها.

(ز) ومن الإخلاص المبادرة بالتربية، وعدم تفويت الفرصة على الطفل، فمن وصايا الحكماء: بادروا بتعليم الأطفال قبل تراكم الأشغال. وكان من آثار المبادرة بالتعلم وجود شخصيات عظيمة نابغة وما زالت فى سن مبكرة، لقد أتم سهل بن عبد الله التسترى حفظ القرآن وعمره ست أو سبع سنوات، وأكمل تاج الدين الكندى القراءات العشر وله عشرة أعوام، وكان الشافعى قد حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين، وحفظ الموطأ وهو ابن إحدى عشرة سنة، وتصدر للفتوى وهو ابن خمس عشرة سنة. وكان سفيان بن عيينة إذا جاءه شيء من الفتيا أو التفسير التفت إلى الشافعى وقال: سلوا هذا الغلام، ولما بلغ ابن سينا عشر سنين كان قد أتقن علم القرآن والأدب، وحفظ أشياء من أصول الدين وحساب الهند والجبر والمقابلة كما يقول ابن خلكان. وكذلك يمرنون على العبادة وهم صغار ليشبوا وقد ألفوها، فيكون تكليفهم سهلاً، وفى الحديث الشريف «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرقوا بينهم فى المضاجع»(١). وكذلك يمرنون على الصوم وهم صغار، وكان المسلمون يلهون أولادهم بكرات الصوف حتى يحين وقت الإفطار، كما تقدم فى الفصل الخامس.

(ح) ومن الإخلاص فى التربية تمكين الطالب من مواصلة التعليم ليشبع رغبته ويتسع أفقه وتزداد خبرته ما دام عنده استعداد، وما دام الوالد عنده قدرة على الإنفاق عليه.

(ط) كذلك من الإخلاص تركه يختار نوع العلم الذى يرغبه ويناسب استعداده، ولا يجوز قسره على طريق يرغب عنه ليحقق بذلك رغبة والده ومربيه، فذلك له عواقب وخيمة، وقد يخفق الولد فى هذا الطريق فتنصب اللائمة على من اختاره له، ويضيع تعبه سدى.

---

(١) رواه أبو داود بإسناد حسن عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

(ى) ومن الإخلاص عدم التقصير فى الإنفاق عليه، وتوفيته مطالبه من الكتب والأدوات والأجهزة وغيرها مما يساعد على التعلم ويشرح صدره للاستزادة من المعرفة، وليس السخاء فى هذه الناحية ضائعًا ما دام معقولاً، فيسيجنى الولد والوالد من وراء ذلك ربحًا أدبيًا وماليًا لا يوزن به ماأنفقه فى سبيله.

وأؤكد على الحكمة فى الإنفاق، فلا يعطى الطالب كل ما يطلب، فأنّ تعوده ذلك يفقده الشعور بأهمية المال، ويوحى إليه بأن الحصول عليه سهل ميسر، وإذا كان هذا ملاحظًا لمن يرقبون سلوك الأولاد، فإن المخلصين نبهوا إليه. مثل « هنرى لينيك » نائب رئيس المشتغلين بالعلوم السيكولوچية فى أمريكا فى كتابه « الطريق إلى الأمن الشخصى »(١).

ثانيًا: من تمام واجبات المربى أيضًا الصبر والتحمل. وهذا أمر لازم لكل من يقوم بهذه المهمة، وهو أشد لزومًا للوالدين نحو الطفل، خصوصًا فى السنوات الأولى، فأن معاملة الأطفال فى هذه السن صعبة. لأنهم يتصرفون بغرائزهم وشهواتهم أكثر من تصرفهم بعقولهم التى لم تنضج بعد، ولا تستطيع التفريق بين الخطأ والصواب والحسن والقبيح، وهم فى مرحلة لا تحكم عليهم قوانين، حيث لم يبلغوا سن التكليف، فهم إلى الانطلاق والتحرر أميل، وشعورهم بعطف آبائهم وأمهاتهم يغريهم إلى حد كبير بالتهاون فى التزام التوجيهات.

والمربى، وهو فى سنه المتقدمة نوعًا، نسى أو تناسى مرح الطفولة وانطلاقها، ولم يعد، وقد خضع لقيود العرف وأحكام القانون، يطيق تصرفات الأطفال العابثة، لأنه لا يقدر ظروفها تمام التقدير، ومن أجل هذا كان ضبط النفس والتحمل من أهم ما يلزم للمربى.

ومن مظاهر هذه الصفة ما يأتى:

(أ) عدم تبرم الوالد بأولاده أو هجر المنزل فراراً من مضايقاتهم، فإن

---

(١) مجلة رابطة الإصلاح الاجتماعى، أكتوبر ١٩٥١.

وجوده فى وسطهم يعوده – كرهًا – ضبط الأعصاب وهدوء الانفعالات، وفيه تأليف لقلوبهم وتوكيد لصلته بهم، إلى جانب تخفيف الحمل عن الزوجة الحائرة بين الخدمة ومواجهة هذه المضايقات، والتفاهم معها على أقوم الطرق لعلاج الموقف إذ ذاك.

(ب) عدم الإسراع بالدعاء عليهم تنفيسًا عن غيظ لا يُحبُّ أن يفجره بضرب قد تكون له خطورته وقت هذا الانفعال، وقد نهى النبى ﷺ عن ذلك فقال: «لا تدعوا على أنفسكم ولا تدعوا على أولادكم ولا تدعوا على أموالكم – رقيق وحيوانات وغيرها – لا توافقوا من الله ساعة يسأل فيها فيستجيب لكم»(١) وقد قال ذلك عندما سمع رجلاً يلعن دابة قد استعصت عليه. وجاء رجل إلى عبد الله بن المبارك فشكا إليه بعض ولده، فقال: هل دعوت عليه؟ قال: نعم، قال: أنت أفسدته.

وإذا كان النبى ﷺ نهى عن الدعاء عليهم فهو ينهى عن تمنى موتهم كما نهى عن تمنى موت نفسه لضر نزل به، ففى الحديث «لا يتمنين أحدكم الموت لضر أصابه، فإن كان لا بد فاعلاً فليقل: اللهم أحينى ما كانت الحياة خيرًا لى، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيرًا لى»(٢).

ولا ينبغى أن يقول كما قال الأعرابى:

الناس يُعْطَوْن أموالاً ميسرة ... وأنت أعطيتنى يا رب صبيانا
خذهم إليك فكُلٌّ صار فى خَلَقٍ ... وأنت أعطيته يا رب عريانا
قد كنت كلفتنى فى أمهم ثمنا ... فخذهم عاجلا يا رب مجانا(٣)

هذا، وقد يصعب على الإنسان أحيانًا ضبط أعصابه إلى الحد الأقصى فيلجأ إلى التنفيس عن نفسه، والطبيعة البشرية تقضى بذلك، غير أن هذا لا ينبغى أن يصل إلى حد الدعاء على الأولاد وتمنى التخلص منهم، فذلك له أثره السيىء

(١) رواه مسلم عن جابر.
(٢) رواه البخارى ومسلم عن أنس.
(٣) محاضرات الأدباء ج١ ص٢٠٥.

فى نفوسهم، وقد رخص الدين فى بعض ألفاظ اعتادها الناس، وسلَّم بها العرف لا يقصد بها تبرم بقدر ما يقصد بها من توجيه وتأديب. حدث أن عبد الله بن بُسرٍ المازنى أرسلته أمه إلى رسول الله ﷺ بقطف من عنب، فأكل منه قبل أن يبلغه إليه، فلما رآه النبى ﷺ على هذه الحال أخذ بأذنه وقال «يا غُدّر» يعنى يا غادر. رواه ابن السنى[1] وفى البخارى ومسلم أن أبا بكر الصديق ضَيَّف جماعة فأجلسهم فى منزله ثم انصرف إلى رسول الله ﷺ فتأخر عنهم، فلما رجع قال: أعشيتموهم؟ قالوا: لا، فأقبل على ابنه عبد الرحمن فقال: يا غُنْثَر، فَجدَعَ وسب، أى دعا عليه بقطع أنفه، والغنثر هو اللئيم[2].

(جـ) التحمل يقتضى عدم اليأس من صلاح السلوك أو النجاح فى الامتحان أو التوفيق فى المسعى، فالظروف تتغير، والمستقبل فيه مفاجآت كثيرة، وكم من ولد بدأ حياته شقيا بليداً، فانتهى صالحا متفوقًا، والأمثلة التاريخية كثيرة.

وحتى يتعود المربى التحمل نصح العلماء بألا يزاول المعلم عمله عندما تكون أعصابه متوترة أو نفسه مضطربة، تحت تأثير جوع أو مرض أو حزن مثلاً، كما يقول ابن جماعة فى كتابه «تذكرة السامع والمتكلم»[3].

هذا، وقد قال العلماء: يراد للعالم - بوجه عام - عشرة أشياء: الخشية والنصيحة والشفقة والاحتمال والصبر والحلم والتواضع والعفة عن أموال الناس ودوام النظر فى الكتب وعدم الحجاب. وفيما مضى وفيما سيأتى توضيح لهذه الأمور.

ثالثًا: ومما يلزم المربى خلق الرحمة، وهى رقة فى القلب تدفع إلى عمل الخير نحو الغير، وهذه الرحمة فى الوالدين نحو الأولاد فطرية، لا يشذ عنها إلا فاسد الطبع أو من وقع تحت تأثيرات شديدة. لقد مدح النبى ﷺ بها نساء

(١، ٢) الأذكار للنووى ص٢٨٦، ٢٨٧.

(٣) تاريخ التربية ص٢٤٤.

قريش فقال: «نساء قريش خير نساء ركبن الإبل، أحناه على طفل وأرعاه على زوج فى ذات يده»[1] ولما اختصمت امرأتان فى طفل وقضى سليمان بينهما بشقه نصفين صرخت الأم الحقيقية وتنازلت عن نصيبها فيه للأخرى، فعرف أنها أمه وأعطاه لها كما رواه البخارى، ذلك لأن الرحمة فطرية فى الوالدين، فالولد قطعة منهما، والإنسان لا يحب أن تكون هناك قسوة على بعض أطرافه فكيف بأعزها وخلاصتها؟

والرحمة مطلوبة فى التربية سواء أكانت لولده أم لغير ولده نظراً لصغر سن الطفل، وحداثة الصبى، وعدم تقديره للمسئولية تقدير الكبير لها. وللرحمة مظهران، أحدهما سلبى والآخر إيجابى، ومن السلبى الصبر والتحمل على ما مر بيانه، ومن الإيجابى ما يأتى:

(أ) تقبيل الوالدين للولد وهو مظهر طبيعى يشاهد فى كل الأسر وجميع الأوساط وكل الأجيال، وإن كانت له احتياطات صحية تنبغى مراعاتها، كأن تكون القبلة على الخد أو الجبين أو اليد مثلاً، بعيدة عن الفم منعا للعدوى إن كان المقبِّل حاملا لسببها، والنبى ﷺ كان يقبل أولاده ومن تحت رعايته. روى البخارى ومسلم عن أنس: كان النبى ﷺ أرحم الناس بالعيال، وكان له ابن مسترضع فى ناحية المدينة، وكان ظئره قيناً، وكنا نأتيه وقد دخَّن البيت بإذخر، فيقبله ويشمه[2].

وقد رآه الأقرع بن حابس يقبل الحسن فقال: إن لى عشرة من الولد ما قبلت أحداً منهم، فقال له النبى «من لا يرحم لا يرحم» رواه البخارى عن أبى هريرة، وفى رواية له عن عائشة أنه قال لمن تعجب من تقبيله الصبيان «أو أملك أن نزع الله من قلبك الرحمة»؟[3] وقبَّل النبى ﷺ فاطمة وعليا وغطاهما بخميصته كما فى المسند من حديث أم سلمة. واستعمل عمر رجلاً من بنى أسد على

---

(١) رواه البخارى عن أبى هريرة.
(٢) الزرقانى على المواهب – إبراهيم بن النبى.
(٣) رياض الصالحين ١١٢.

عمل. فجاء يأخذ عهده فأتى عمر ببعض ولده فقبله، فقال الرجل: أتقبل هذا يا أمير المؤمنين؟ والله ما قبلت ولداً قط، فقال عمر: والله أنت بالناس لأقلّ رحمة. هات عهدنا لا تعمل لى عملاً ابداً[1].

ب – تدليل الطفل بأنواع التدليل المختلفة المقبولة، لإيناسه وربطه قلبه به، ولا يأنف الكبير أن يتنزل إلى درجة ملاعبة الأطفال ليكون معهم بقلبه وعواطفه وتصرفاته بعض الزمن على الأقل، ففى الحديث «من كان له صبى فليتصاب له» رواه معاوية بن أبى سفيان عندما دخل عليه جبلة بن سحيم وهو فى الخلافة، فرأى فى عنقه حبلا يقوده به صبى، فلما استنكر ذلك قال له معاوية: يالكَعْ اسكت، فأنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كان له صبى فليتصاب له» أخرجه ابن أبى الدنيا وابن عساكر، وقال غريب جداً[2].

وكان النبى ﷺ يدلل الحسن والحسين وأسامة بن زيد، فعن أسامة قال: كان رسول الله يأخذنى فيقعدنى على فخذه ويقعد الحسن على الأخرى، ثم يضمهما ثم يقول «اللهم ارحمهما فأنى أحبهما» رواه البخارى. ويشرح الشرقاوى على الزبيدى[3] هذا الحديث ويذكر أن أسامة كان أسَنَّ من الحسن، فعمره عند وفاة النبى كان نحو عشرين سنة، وعمر الحسن نحو ثمان سنوات. ويجيب على ذلك بأنه قد يكون النبى أقعد أسامة على فخذه لنحو مرض أصاب فمَّرضه بنفسه، أو أن إقعادهما ليس فى وقت واحد، أو عبَّر عن إقعاده بحذاء فخذه لينظر فى مرضه بقوله: فيقعدنى على فخذه، مبالغة فى شدة قربه منه.

وفى إغاثة اللهفان لابن القيم[4] قال شداد بن الهاد عن أبيه: خرج علينا رسول الله ﷺ وهو حامل الحسن أو الحسين فوضعه ثم كبر للصلاة، فصلى فسجد بين ظهرانى صلاته سجدة أطالها، فلما قضى الصلاة قال «إن ابنى ارتحلنى فكرهت أن أعجله» رواه أحمد والنسائى، وفى رواية عنه: بينما رسول الله يصلى

---

(١) سيرة عمر لابن الجوزى ص٨٥.
(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص١٣٥.
(٣) ج٣ ص٣١٢.
(٤) ص٨٢.

بالناس إذ جاء الحسين فركب عنقه وهو ساجد فأطال السجود بالناس حتى ظنوا أنه حدث أمر، فلما قضى صلاته قالوا: قد أطلت السجود يا رسول الله حتى ظننا أنه قد حدث أمر، فقال «إن ابنى ارتحلنى فكرهت أن أعْجلَه حتى يقضى حاجته» رواه النسائى والحاكم وصححه على شرط الشيخين[1].

وأخرج ابن سعد عن عبد الله بن الزبير أنه رأى الحسن يجىء والنبى ساجد فيركب رقبته، أو قال ظهره، فما ينزله حتى يكون هو الذى ينزل، ولقد رأيته وهو راكع فيفرج له بين رجليه حتى يخرج من الجانب الآخر[2]. وقد مر أنه حمل الحسن والحسين ووضعهما بجانبه على المنبر. وروى أحمد بإسناد صحيح عن عائشة أن أسامة عثر بعتبة الباب فَدَمِىَ. فجعل النبى يَمَصُّه ويقول «لو كان أسامة جارية لحليتها ولكسوتها حتى أنفقها» ورواه ابن سعد فى الطبقات عن أبى السفر مرسلاً وهو صحيح ورواه ابن سعد أيضًا موصولا. وأخرج الشيخان عن البراء قال: سمعت رسول الله ﷺ والحسن بن على على عاتقه، وهو يقول «اللهم إنى أحبه فأحبه» وأخرج الحاكم عن ابن عباس قال: أقبل النبى ﷺ وقد حمل الحسن على رقبته فلقيه رجل فقال: نعم المركب ركبت يا غلام، فقال له رسول الله «ونعم الراكب هو»[3]. وأخرج ابن سعد عن أبى سلمة عبد الرحمن: كان رسول الله يَدْلَعُ لسانه للحسن بن على، فإذا رأى الصبى حمرة اللسان يَهَشُّ إليه[4]. وفى رواية الحافظ السلفى عن أبى هريرة: كان النبى ﷺ يفتح فم الحسن ثم يدخل فمه فى فمه ويقول «اللهم إنى أحبه وأحب من يحبه»[5]. وفى صحيح مسلم[6] أن النبى ﷺ كان يصلى وهو حامل أمامة بنت زينب بنت رسول الله، وكان إذا قام حملها، وإذا سجد وضعها. رواه عن أبى قتادة.

تنبيه: تحدث الفقهاء عن حكم حمل الصبى فى الصلاة فقالوا: إنه جائز

---

(١) الإحياء ج٢ ص١٩٤. (٢) تاريخ السيوطى ص ١٢٧.
(٣، ٤) تاريخ السيوطى ص١٢٧.
(٥) الصبان على هامش مشارق الأنوار ص١٦٨.
(٦) ج٥ ص٣١.

ولو لم يعلم حال ثيابه، بدليل ما حدث عن النبى ﷺ مع أولاده، كما قالوا: إن ريق الصبى ولعابه طاهران، لأن البلوى تعم بهما، أو نجسان نجاسة معفوا عنها للمشقة فى التحرز والتطهير، فقد كان النبى ﷺ يُصْغى الإناء للهرة حتى تشرب، ثم يتوضأ بفضلها مع علمه بأكلها الفأرة، واحتمال ورودها الماء الكثير فى المدينة بعيد. فقيل: إن الريق مطهر لفمها، وهو مطهر لفم الطفل للحاجة، وهو أولى من التطهر بالحجر فى الاستنجاء، والتراب لأسفل الخف فى بعض المذاهب، ومن الشمس للحل، ومن الخرقة للسيف والمرآة عند من يقول بذلك، وكان الصحابة يمسحون سيوفهم ويصلون فيها، ولو غسلت لصدئت وذهبت نفعها، اهـ من تحفة الودود.

والحق أن هذه الملاطفة تهب الطفل دفئا وحناناً يظهر أثرهما على صحته، وتعلقه بوالديه ومحبته لهما. يتحدث الأحنف بن قيس عن ذلك لما سأله معاوية رأيه فى الولد – وكان يزيد ابنه حاضرا – فيقول: ثمار قلوبنا وعماد ظهورنا، ونحن لهم أرض ذليلة وسماء ظليلة، وبهم نصول على كل جليلة، فإن طلبوا فأعطهم، وإن غضبوا فأرضهم، يمنحوك وُدَّهم ويحبُّوك جهدهم، ولا تكن عليهم ثقْلاً ثقيلاً فيملوا حياتك ويحبوا وفاتك، ويكرهوا قربك[1].

ويجرنا هذا إلى أن نتحدث عن رأى المربين فى الأخذ بإحدى الطريقتين، اللين أو الشدة:

(أ) فقد اشتط جماعة وأفرطوا فى استعمال سياسة اللين والرأفة والحنان، فضيعوا أولادهم، كما ضيع عبد الملك بن مروان ابنه الوليد، فخاف عليه حياة البداوة وقسوتها فلم يرسله إليها ليتعلم اللغة العربية الفصحى، فتسرب اللحن إلى لسانه كما تقدم ذكره. والطريق المفروش كله بالورد لا يوصل إلى المجد أبداً. وقد دعا كثير من الكتاب إلى سياسة اللين والحرية فى تربية الأطفال كمساعد على استقلال الشخصية. ولكن النتيجة كانت سيئة للغاية، حيث نشأ جيل

---

(١) العقد الفريد ج١ ص١٩٦.

منقاد لأهوائه المتقلبة ونزعاته الجامحة، وهذا أقسى أنواع العبودية للغرائز والأهواء، تتنافى مع الحرية التى اتخذوها وسيلة، كما أن هذه السياسة لا تساعد أبداً على وجود آداب مشتركة يعيش عليها الناس، ولا على وجود أشخاص ذوى أخلاق قوية يقاومون شهواتهم ويروضونها ليحيوا حياة طيبة. وقد ضج علماء أمريكا من هذه السياسة، وكانت هى من أوائل حاملى لواء الحرية وتربية النشء عليها.

جاء فى أهرام ٢٩/٨/١٩٦١ أن إخصائى التربية فى أمريكا نادمون على الحرية التى وهبوها لأبناء هذا الجيل، فكانت سبباً فى الانحلال. وقد اكتشفوا أن البلادالتى ربت أولادها على الشدة هى التى يخرج منها الشباب الناجح المستقيم، ولذلك هم ينادون الآن بالاعتدال فى منح هذه الحرية فلا ينشأ الأولاد بطريقة بوهيمية، بل لا بد من معاقبتهم ليعرفوا الخطأ من الصواب ويحرصوا على الخير، ويتخاشوا الشر.

والسير «باسيل هنريك» رئيس محكمة الأحداث بلندن يقرر أن سبب تدهور الأخلاق وكثرة الجرائم بين الأحداث يعود إلى نظريات فجَّة من علم النفس والتربية، وإلى أن الوالدين أعطوا الصغار حرية كاملة لم يعرفوا كيف يستعملونها. ثم يضيف إلى ذلك قوله بالحرف الواحد: إن فلسفة الأحداث اليوم هى: إننى أرى... وأريد .... وآخذ .... ويضاف إليها: دعنى أستمتع ما استطعت وكلما كان ذلك فى مقدورى. وقال الأديب الأمريكى الدكتور «فوزدن» صاحب كتاب «محكُّ الأخلاق»: لقد أعطى هذا الجيل حرية لم ينل مثلها جيل فى التاريخ، أعطيت له وهو صغير فأساء استعمالها، تعاطى الشبان والشابات الخمر بزهو وافتخار، فأخذت حياتهم تتراقص مع الرياح، لقد تركت النبتة الطرية دون ركائز فنمت عوجاء، وما الركائز فى نظرى سوى مراقبة دقيقة وتوجيه لطيف، إن فشلا فعَصاً تحمل القسوة المحببة المنبثقة من قلوب تقصد الخير لا الانتقام والتشفى[1].

(١) مجلة العربى عدد أكتوبر ١٩٦٨ ص٥٦.

(ب) وأهمل جماعة سياسة اللين واشتطوا فى استعمال القسوة والخشونة، فضيعوا أولادهم أيضاً، ذلك أن سياسة الكبت والحرمان تجعل الطفل يتنفس عند كبره واستقلاله بالقسوة والشدة، كردٍّ فعل لنشأته الأولى، فيشقى فى حياته ويشقى من معه. وسياسة الشدة تحمل على الاحتيال للتخلص من قيودها المرهقة، واعتقاد أن الغاية تبرر الوسيلة، وقد وضح ابن خلدون هذا المعنى فى مقدمته[1] وقرر أن الشدة على المتعلمين مضرة بهم. وهذه السياسة كانت طابع التربية فى القرون الوسطى الغالبة على الأمم القديمة، وكانت وما تزال مسيطرة على عقول الآباء فى كثير من البلاد الشرقية والعربية، على تفاوت فيما بينها تبعاً لشدة الغزو الثقافى والخلقى الوافد من الغرب بنظرياته الجديدة.

يصف « شاتو بريان » هذه السياسة التى كانت سائدة فى فرنسا حتى قبل ثورة ١٧٨٩ المشهورة فيقول: كنت أنا وأمى وأختى ننقلب فى حضرة والدنا إلى تماثيل لا تتحرك، وما كنا نرجع إلى حالتنا الطبيعية إلا بعد أن يترك الغرفة، كما يصف المؤرخ الإنجليزى « رايت » هذه السياسة فى بلاده فى القرن الخامس عشر فيقول: إنها كانت إرهاقاً محضاً حتى فى الأسر الكبيرة، فقد كانت سيطرة الآباء بالغة حد الإفراط، أما فى القرن السابع عشر فقد كان من واجبات الأبناء لأبويهم أن يقفوا على أرجلهم أو يَجْثُوا على ركبهم فى صمت مطبق ولا يجلسوا حتى يؤمروا[2].

وخير طريقة عملية للتربية هى سياسة اللين والرحمة فى السنين الأولى لحياة الطفل، حتى إذا بدأ يعقل ويدرك أثر معاملة الوالدين تبدأ سياسة جديدة هى مزيج من اللين والشدة، ولذلك ليعدَّ إعداداً كاملاً لمواجهة الحياة بحلوها ومرها ونعيمها وشقائها، ويتذوق ذلك من الصغر حتى لا يفاجأ بها فى الكبر. وهذه الطريقة هى الوسط، وخير الأمور أوساطها.

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما فليقس أحيانا على من يرحم

---

(١) ص٣٩٩.

(٢) مجلة الأزهر مجلد ٥ ص١٩٩.

والنبى ﷺ الذى مرت بك معاملته الرحيمة لأولاده كان يعاملهم ببعض الشدة عند الضرورة أو عند الظرف الملائم. لقد قال للحسن، وقد التقط تمرة من الصدقة كخ، كخ، وضربه ورمى بها، وقد تقدم ذلك. وجاء فى وصية الرشيد لمؤدب ولده: ولا تمعن فى مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه، وقوِّمه بالتقريب والملاينة، فإن أبى فالشدة[1]. وتحكى الأخبار أن مؤدب ولد كسرى ضربه يوماً دون ذنب جناه وقد رأى نجابته، فلما شكا ذلك لوالده، أو عندما تولى الملك بعد أبيه، استدعى المؤدب وسأله السبب، فقال: أردت أن أذيقك طعم الظلم حتى لا تظلم الناس.

رابعاً: من الأساليب الصحيحة للتربية مراقبة السلوك، فليست مهمة المربى إلقاء المعلومات وتقديم التوجيهات فقط، بل يجب عليه أن يراقب تنفيذها، لأن الإهمال يغرى الطفل بالتهاون، بل يغرى كل إنسان به، فالنفس تميل إلى الراحة والانطلاق من القيود. والغرائز عند الناشئين قوية، والمقاومة العقلية ضعيفة عندهم، قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ** ﴾ [التحريم: ٦] وتقدم أن النبى ﷺ أخرج تمرة من تمر الصدقة وضعها الحسن فى فمه فقال له «كخ، كخ، ارم بها، أما علمت أنا لا نأكل الصدقة». وروى أبو داود أن عمار بن ياسر قال: قدمت على أهلى ليلاً وقد تشققت يداى، فخلَّقونى بزعفران، فقابلت الرسول صباحًا فسلمت عليه فلم يرد السلام ولم يرحب بى، وقال «اذهب واغسل عنك هذا» فغسلته ثم جئته فسلمت عليه فردَّ علىَّ ورحب بى.

ولمساعدة الناشىء على الاستقامة وتجنبه الانحراف يجب أن تلقى إليه المعلومات ممزوجة بالترغيب والترهيب معًا، وهى سياسة القرآن وسياسة النبى ﷺ عله فى تربية المسلمين، قال تعالى: ﴿ **نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ** ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، وقال: ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا**

---

(١) الخاص للبيهقى ج٢ ص٢١٣.

فَلِنَفْسِه وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [فصلت : ٤٦] وقال ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : ٧، ٨] وقال تعالى : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ [النساء : ١٣، ١٤] .وهذا إجراء وقائى يحول دون الاعتذار عند التقصير .

والمراقبة تنتج تشجيع المطيع ومؤاخذة العاصى، والتشجيع كما يكون ماديًا بهدية ونحوها يكون أدبيا بكلمة استحسان أو إشادة به بين الأقربين مثلاً، والمؤاخذة أيضًا مادية كالضرب والحبس وأدبية كاللوم والتقريع، وهى تختلف فى نوعها وشدتها باختلاف أنواع المخالفة، وباختلاف المخالف نفسه، فقد تكون الكلمة مؤثرة فى البعض تأثير الضرب والحبس فى البعض الآخر أو أشد، كما يقول القائل :

العبد يقرع بالعصا والحر تكفيه المقالة

وقد أوصى الإمام الغزالى أن يتجاوز عن أول مخالفة تحدث من الصبى، فلا يهتك ستره ولا يكاشفه، ولا سيما إذا سترها واجتهد فى إخفائها، لأن إظهار ذلك عليه ربما يفيده جسارة حتى لا يبالى بالمكاشفة، وإن عاد ثانيًا عوتب سرًا، ويهدده بالعقاب إن تكررت مخالفته . وألا يكثر عليه من اللوم فى كل حين، فإنه يهوّن عليه سماع الملامة، وركوب القبائح، ويسقط وقع الكلام فى قلبه، وأن يكون الأب حافظًا هيبة الكلام معه ولا يوبخه إلا أحيانًا[1] . كما يوصى أن تكون المؤاخذة بالتعريض لا بالتصريح، حتى لا يجرح إحساسه ويغريه بالعناد . فإن لم يفد ذلك صرح بالإنكار وعاقب بما يراه[2] . وهذا مأخوذ من هدى النبى ﷺ، فأنه كان إذا رأى تقصيرًا من بعضهم نبّه عليه بالعنوان العام، أو بعدم تحديد الشخص الذى وقعت منه المخالفة . فعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله

---

(١) الإحياء ج٢ ص٦٣ .

(٢) المرجع السابق ص٥٠ .

ﷺ « ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء فى صلاتهم »[١] فالمقصر يعرف نفسه دون أن يشعر به غيره. وجاء فى رواية أبى داود عن عائشة: كان رسول الله ﷺ إذا كره من إنسان شيئًا قال « ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا » ورجاله رجال الصحيح[٢].

والعقاب بالضرب موجود منذ القدم فى تأديب الأولاد، فى البيوت والمدارس وقد رخص به الإسلام فى ضرب الزوجة الناشز إذا لم تفلح الموعظة والهجر، وكما تقدم فى حديث « مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرقوا بينهم فى المضاجع »[٣] غير أنه ينبغى ألا يكون الضرب مبرحًا، وأن يستعمل عند من لا يقومه إلا ذلك كما تقدم فى وصية الرشيد للأحمر مؤدب ولده الأمين، وقد دخل ولد لعمر بن الخطاب عليه وقد ترجل – سَوَّى شعره – ولبس ثيابًا حسنة، فضربه بالدرة حتى أبكاه، فقالت حفصة: لم ضربته؟ فقال: أعجبته نفسه فأحببت أن أصغِّرها إليه[٤]. جاء فى فتوى نشرت بمجلة الأزهر[٥] أن النبى ﷺ قال لمرداس المعلم « إياك أن تضرب فوق الثلاث، فإنك إن تضربه فوقها اقتص منك » ولم يذكر سنده ولا تخريجه ولا حكمه. واستنتجت الفتوى جواز الضرب بما جرت به العادة، وألا يكون على المقاتل أو الوجه أو الرأس، وألا ينشأ عن ذلك ضرر كتشويه لحم أو كسر عظم، فإن حصل منه شيء من ذلك ضمنه المعلم. إذ لا يزال الضرر بالضرر.

وإذا كنا نوصى الوالد باستعمال الرأفة عند ضرب ولده فإنا نؤكد هذه الوصية بالنسبة إلى المعلم مع تلاميذه، فقد يشتط فى الضرب لغيظ شديد ليس هناك ما يخففه من عاطفة الأبوة، فتحدث أخطار لا ينفع معها الندم. أرسل شريح القاضى مع ولده كتابًا إلى معلمه يشكو فيه لعبه بالكلاب جاء فيه:

---

(١) رواه البخارى. (٢) العراقى على الإحياء ج٣ ص١٢٦.

(٣) رواه أبو داود بإسناد حسن عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده – رياض الصالحين ص١٩.

(٤) تاريخ السيوطى ص٩٦. (٥) عدد رجب سنة ١٣٩٠هـ.

ترك الصلاة لأ كلب يسعى لها ... طلب الهراش مع الغواة الرُّجَّس
فإذا أتاك فعضَّه بملامة ... وعَظَنْهُ موعظة الرفيق الأكيس
وإذا هممت بضربه فبدرَّة ... فإذا بلغت بها ثلاثًا فاحبس
وليحملن منى إليك صحيفة ... نكراء مثل صيحفة المتلمس
واعلم بأنك ما أتيت فنفسه ... مع ما يجرعنى أعز الأنفس

فضربه المعلم عشرًا وعشرًا، فقال له شريح: لم ثَنَّيت الضرب؟ قال: العشر الأولى للبطالة، والثانية للبلادة حيث لا يدرى ماذا يحمل[1]. وقد مَّر بك ضرب أبى مريم للأمين بن الرشيد وكذلك ضرب أبى محمد اليزيدى للمأمون لما تشاغل عنه[2].

هذا، وقد قال العلماء: ينبغى أن يكون العقاب جزاء على عمل غير أخلاقى، لا لدافع شخصى ينتهز المؤدب فرصة غلط الناشىء فيتشفى فيه بضربه أو عقابه. وابن حجر الهيمتى المتوفى سنة ٩٧٤هـ يرد على أحد مؤدبى الأطفال بأنه لا يجوز للمعلم ضرب الصغير إلا إن أذن له أبوه، ثم يشترط فى جوازه بالنسبة للمعلم أن يظنه زاجرًا للتلميذ إذا اقتضت الضرورة، وألا يكون مبرحًا، فإذا ظن المعلم أن التلميذ لا ينفعه إلا الضرب المبرح وهو الشديد الإيذاء فلا يجوز إجماعًا، ويعلل ذلك بأن العقوبة إنما جازت بالنسبة للصبى لظن أنها تفيد الإصلاح، فإذا كان الضرر سيأتى منها انتفت.

وقال ابن خلدون فى مقدمته[3]: ينبغى للمعلم فى متعلميه والوالد فى ولده ألا يشتدوا عليهم فى التأديب. وقد قال أبو محمد بن أبى يزيد فى كتابه الذى ألفه فى حكم المعلمين والمتعلمين: لا ينبغى لمؤدب الصبيان أن يزيد فى ضربهم إذا احتاجوا إليه على ثلاثة أسواط شيئًا، ومن كلام عمر رضى الله عنه:

---

(١) المحاسن للبيهقى ج٢ ص٢١٦ والعقد الفريد ج١ ص١٩٦.
(٢) المحاسن للبيهقى ج٢ ص٢١٥. (٣) ص٣٩٩.

من لم يؤدبه الشرع لا أدبه الله، حرصًا على صون النفوس عن مذلة التأديب، علمًا بأن المقدار الذى عينه الشرع لذلك أملك له، فإنه أعلم بمحصلته.

وينبغى أن يعود الناشىء الطاعة للأوامر بالتدريج لتكون اختيارية لا إجبارية - وذلك بالإقناع والأساليب المهذبة، فيكسب بذلك ثقته، ويجعله يسارع إلى الاستجابة، ولا يحس بأن التربية عبء ثقيل عليه يحاول التمرد عليها، وتصبح الطاعة له عادة - والعادة هى نوع من السلوك المكتسب يصبح ثابتًا لا يتغير مع التكرار والخبرة بدرجة تجعل من السهل التنبوء بها إذا ما تهيأت الظروف التى تناسب الفعل وتقتضيه، فيصبح الفرد بعد ذلك ليس فى حاجة إلى بذل الجهد أو توجيه الانتباه إلى العمل الذى يقوم به، وحينئذ يتم العمل بشكل آلى.

والعادات مختلفة، ويقول إخوان الصفا[1] فيها: واعلم أن العادات الجارية بالمداومة عليها تقوى الأخلاق المشكلة لها، كما أن النظر فى العلوم والمداومة على البحث عنها والدرس لها والمذاكرة فيها يقوى الحذق بها والرسوخ فيها، وهكذا حكم الأخلاق والسجايا.

خامسًا: يجب العمل على إبراز شخصية الناشىء وخلق مقوماتها منذ الصغر، ليشب وقد أحس بوجوده وبقيمته فى الحياة، ولهذا العمل مظاهر، منها:

(أ) تغيير أسلوب معاملته حسب سنه، فهو طفلاً غيره فتى، وقد قيل: ولدك ريحانتك، فشمها سبعا، وخادمًا سبعا، ثم هو عدوك أو شريكك[2]. وفى الأمثال العامية: إن كبر ابنك خاويه. أى عامله كالأخ، فهو فى دور الاستقلال، ولا تعامله معاملة الطفل المؤتمر بكل ما يملى عليه، والمصادمات تحدث كثيرا من عدم مراعاة هذه السياسة التربوية.

---

(١) جماعة شغلوا فى القرن الرابع الهجرى بمزج الدين بالفلسفة، وحاولوا إخفاء أسمائهم، وتنسب إليهم « رسائل إخوان الصفا ».

(٢) الإحياء ج٢ ص١٩٣.

(ب) السماح للناشيء بإبداء رأيه فى الظواهر المحيطة به والمسائل التى يتعلمها، وتدوين ملاحظاته وتعويده مدوامة ذلك، ولا يُمنع من هذا حتى لو جانب رأيه الصواب، بل يجب فسح المجال له ثم إصلاح خطئه بالحسنى، وهذا يعود الطفل التأمل والاستنتاج ومعالجة المشكلات ومواجهة الأزمات بقوة. والحذر كل الحذر من تسفيه رأيه، فذلك يجرح كبرياءه، أو يدعوه إلى الجبن والخوف من الوقوف فى مثل هذا الموقف حتى لو كان رأيه صوابًا. كما يجب عدم الإسراف فى لومه إن أخفق فى عمل. بل يجب أن تلتمس له المعاذير إن كان يصلحه ذلك، وتوضع يده على موضع الخطأ ليتلافاه فيما بعد. يقول الماوردى فى كتابه « أدب الدنيا والدين » : ومن آدابهم ألا يعنفوا متعلمًا ولا يحقروا ناشئًا ولا يستصغروا مبتدئًا، فإن ذلك أرعى إليهم وأعطف عليهم وأحث على الرغبة فيما لديهم. وروى عن النبى ﷺ أنه قال « علموا ولا تعنفوا، فإن المعلم خير من المعنف » وروى عن النبى ﷺ أنه قال « وقِّروا من تتعلمون منه، ووقروا من تعلمونه » اهـ[1]. ولا أعرف لهذين الحديثين سندًا. ذكره السيوطى فى الجامع الكبير وقال عقبه: أبو إسحاق المشملى فى معجمه وأبيه إسحاق فى فوايده وابن النجار عن ابن عمر.

(جـ) تعويده الاعتماد على النفس واستقلال الفكر، فلا تلقى إليه كل المعلومات ليأخذها تلقائيًا لا نشاط له فيها سوى التلقى، بل ينبغى أن يجعل له نصيب من إعمال الفكر وتحريك الذهن، فتوضع له مقدمات ثم يترك ليصل منها إلى النتائج مثلاً، وإلى جانب أن هذه الطريقة تكسبه هذا التعود فإن فيها اطمئنانًا من المربى على مدى استفادة الناشيء منه، وقد سلك النبى ﷺ هذا المسلك فى عدة مواقف. فقد روى مسلم[2] أنه قال لأبىّ بن كعب « يا أبا المنذر، أتدرى أى آية من كتاب الله معك أعظم »؟ فقال: الله ورسوله أعلم. ولكنه كرر عليه السؤال فأجاب بقوله « الله لا إله إلا هو الحى القيوم... » فسرَّ النبى به وضرب بيده على صدره وقال « والله ليَهْنك العلم أبا المنذر ».

---

(١) ص٧٧.

(٢) ج٦ ص٩٣.

وروى البخارى ومسلم عن ابن عمر قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ أتى بُجمّار نخلة فقال «إن من الشجر شجرة مثلها مثل الرجل المسلم، لا يسقط ورقها، أخبرونى ما هى»؟ فوقع الناس فى شجر البوادى، ووقع فى نفسى أنها النخلة، فأردت أن أقول: هى النخلة، ثم نظرت فإذا أنا أصغر القوم سنا فسكتُّ. فقال رسول الله «هى النخلة» فنقل ذلك إلى أبيه عمر، فقال: لأن تكون قلتها أحب إلى من كذا وكذا، يقول ابن القيم تعليقًا عن هذا الحديث: فى هذا الحديث إلقاء العالم المسائل على أصحابه وتمرينهم واختبار ما عندهم. وفيه ضرب الأمثال والتشبيه، وفيه ما كان عليه الصحابة من الحياء من أكابرهم وأجلائهم وإمساكهم عن الكلام بين أيديهم، وفيه فرح الرجل بإصابة ولده وتوفيقه للصواب، وفيه أنه لا يكره للولد أن يجيب بما عرف بحضرة أبيه وإن لم يعرفه الأب، وليس فى ذلك إساءة أدب عليه[1].

ومثل ذلك إلقاء عمر لسؤال على كبار الصحابة فى مجلسه، وكان معهم ابن عباس، يسألهم: ماذا يقصد من سورة ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ**.....﴾ فلم يعرف الجواب إلا ابن عباس الذى قال: إنها تنعى إلى النبى أجله[2].

(د) تعويده الحياة الاجتماعية، باصطحابه معه فى المجالس والزيارات والرحلات والمساجد والمجتمعات، وهو واجب على الآباء والمربين فى المدارس وغيرها، ليألف الأولاد هذه الحياة من صغرهم، وليستطيعوا أن يقدموا خدمات لغيرهم، ومشروع خدمة الحى الذى تقع فيه المدرسة نموذج طيب من تعويد الناشئين على السلوك الاجتماعى. وأما حديث تجنيب الصبيان المساجد فقد مر حكمه، وخلاصته منعهم إذا كانوا غير مميزين ويخشى منهم التشويش على المصلين وتلويث المساجد وانتهاك حرمته كما منع البيع والشراء للأمور الأخرى المذكورة فى الحديث.

(هـ) تعويده تحمل المسئولية فى تحصيل العيش من عمل يكسب منه،

---

(١) زاد المعاد ج٣ ص١٩٣.

(٢) رواه البخارى.

فينفع نفسه، وينفع أسرته ووطنه، وإشراكه مع والده فى عمله. ويقال مثل هذا إذا كبر الناشىء فلا ينبغى الحرص على عيشه مع الوالدين والأسرة، بل يشجع على تكوين أسرة جديدة مستقلة، أو على الأقل لا يمتعض من ذلك، فإن استقلاله وتجربته للحياة تكون تحت رقابة الوالدين يصلحان من خطئه، ويقومانه ليطمئنا على مستقبله.

سادسًا: قرن العلم بالعمل وتطبيق المعرفة على السلوك، وذلك لتثبت المعلومات فى ذهن الصبى، وتتأكد الانطباعات فى نفسه وليتبين للمربى مقدار استجابته للتربية، وقد أثر عن العلماء أنهم قالوا: العلم يهتف بالعمل، فإن أجاب وإلا ارتحل[1]. وقيل للمهلب بن أبى صفرة: بم أدركت ما أدركت؟ قال: بالعلم. قيل له: فإن غيرك قد علم أكثر مما علمت ولم يدرك مثل ما أدركت. فقالك هذا علم استعمل وذاك علم أهمل[2].

وقد سبقت الإشارة إلى أن المسلمين كانوا يعودون أولادهم الصيام ويلهونهم بكرات الصوف حتى يحين وقت الإفطار. والطفل إذا مارس التطبيق خصوصًا فى الأمور الأدبية كالرحمة بالضعفاء والعطف على الفقراء أمكن أن يحس بما يحس به هؤلاء إلى حد ما. ولو أنه وضع مكانهم فى التجربة لكان أعمق فى إحساسه بما يحسون. ومن الطريف أن فى بعض البلاد الأجنبية مدرسة تعلم الأخلاق للأولاد عمليًا، كالعطف على أصحاب العاهات، بأن يفرض على كل واحد أن يكون أعمى فى يوم من السنة – بوضع عصابة محكمة على عينه – ويقوم الآخرون بخدمته.

ومن صور هذا التطبيق العملى غرف الهوايات والقاعات العملية والمزارع الملحقة بالمدارس، وقيام التلاميذ بعمل مسح اجتماعى للمنطقة التى تقع فيها مدرستهم، والقيام بالرحلات وتسجيل المشاهدات، وكذلك من صور التطبيق إحضار اللعب المناسبة للأطفال كعرائس البنات ونماذج مصغرة من أثاث المنزل

---

(١) أدب الدنيا ص٦٩.　　(٢) مجلة الأزهر مجلد ٤ ص٥٤٤.

تلهو بها البنت وتنسقها وتستخدمها كما تفعل أمها. يقول النووى فى شرح حديث عائشة أنها زفت إلى النبى ﷺ وهى بنت تسع سنين ومعها لعبها: المراد هذه اللعب المسماة بالبنات التى تلعب بها الجوارى الصغار، قال القاضى: وفيه جواز اتخاذ اللعب وإباحة لعب الجوارى بهن. وقد جاء فى الحديث الآخر. أن النبى ﷺ رأى ذلك ولم ينكره. قالوا: وسببه تدريبهن لتربية الأولاد وإصلاح شأنهن وبيوتهن[1].

سابعًا: التدرج فى التربية، إن التدرج فى التربية كما يكون فى المعلومات التى يختار منها ما يناسب مدارك الطفل وتطوره ونموه – يكون فى طريقة الأداء أيضًا، فلكل سنٍّ ومرحلة ما يناسبها، وللأذكياء والأغبياء ما يناسب مدارك كل واستعداداته يقول ابن خلدون: اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيداً إذا كان على التدريج شيئًا فشيئًا وقليلاً قليلاً، يلقى عليه أولاً مسائل من كل باب من الفن هى أصول ذلك الباب، ويقرب له فى شرحها على سبيل الإجمال، ويراعى فى ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه حتى ينتهى إلى آخر الفن. وعند ذلك يحصل له ملكة فى ذلك العلم، إلا أنها جزئية وضعيفة، وغايتها أنها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسائله، ثم يرجع به إلى الفن ثانية فيرفعه فى التلقين من تلك الرتبة إلى أعلى منها، ويستوفى الشرح والبيان، ويخرج عن الإجمال ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجهه، إلى أن ينتهى إلى آخر الفن فتجود ملكته، ثم يرجع به وقد شذا – قوى – فلا يترك عويصًا ولا مبهمًا ولا مغلقًا إلا وضحه وفتح مغلقه، فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته، هذا وجه التعليم المفيد....[2].

والتشريع الإسلامى نفسه كان على التدريج فى كثير من مسائله، وما كان بمكة غير ما كان بالمدينة – مادة وأسلوبًا، ولم تحرم بعض العادات تحريمًا قاطعًا إلا بعد عدة مراحل، وآية ذلك تحريم الخمر، فكان أولاً اختياريًا لم يصرح به

---

(١) صحيح مسلم ج٩ ص٢٠٨.　　(٢) المقدمة ص٣٩٤.

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ [البقرة: ٢١٩] ثم حرمت وقت الصلاة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء: ٤٣] ثم حرمت فى كل الأوقات ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١]. وكان التحريم النهائى فى السنة الثالثة أو الرابعة أو الثامنة للهجرة. وتفصيل ذلك طويل.

وقد تنبه المسلمون إلى ضرورة التدرج فى التربية، ومن ذلك قول عمرو بن عتبة لمؤدب ولده: لا تنقلهم من علم إلى علم حتى يحكموه، فإن ازدحام الكلام فى القلب مشغلة للفهم[١]. ويوصى الغزالى أن يؤخذ المتعلم على قدر فهمه فلا يلقى إليه ما لا يبلغه عقله فينفره أو يخلط عليه عقله، اقتداء فى ذلك بسيد البشر ﷺ حيث قال: «نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم، ونكلمهم على قدر عقولهم»[٢]. وهذا الحديث لم يرد بهذا الشكل، والذى ورد هو «أنزلوا الناس منازلهم» بدون زيادة. ورواه أبو داود عن عائشة. وورد عن ابن مسعود موقوفًا عليه: ما حدث أحدكم قومًا بحديث لا يفقهونه إلا كان فتنة عليهم. وروى مرفوعًا عن ابن عباس لكن بسند ضعيف[٣].

وقال الغزالى أيضًا: وعلى الخائض فى العلم فى مبدأ الأمر عدم الإصغاء إلى اختلاف الناس، فإن ذلك يدهش عقله ويحير ذهنه ويفتر رأيه ويؤيسه عن الإدراك – وقال أيضًا: ينبغى ألا يخوض فى فَنٍّ من فنون العلم دفعة، بل يراعى الترتيب ويبتدىء بالأهم. وقال: وينبغى ألا يخوض فى فن حتى يستوفى الفن

---

(١) العقد الفريد ج١ ص١٩٦.
(٢) الإحياء ج١ ص٥١.
(٣) العراقى على الإحياء ج١ ص٣٢.

الذى قبله، فإن العلوم مرتبة ترتيباً ضرورياً، وبعضها طريق إلى بعض. والموفق من راعى ذلك الترتيب والتدرج[1].

ويقول الماوردى: واعلم أن للعلوم أوائل تؤدى إلى أواخرها، ومداخل تفضى إلى حقائقها، فليبتدىء طالب التعلم بأوائلها لينتهى إلى أواخرها، وبمداخلها ليفضى إلى حقائقها، ولا يطلب الآخر قبل الأول، ولا الحقيقة قبل المدخل، فلا يدرك الآخر ولا يعرف الحقيقة. لأن البناء على غير أساس لا يبنى، والثمر من غير غرس لا يجنى[2].

ثامناً: ورد عن على رضى الله عنه أنه قال: لا تكرهوا فتيانكم على أخلاقكم، فأنهم خلقوا لزمان غير زمانكم، وهذه ملاحظة دقيقة يريد بها ألا يربى العرب أولادهم على أخلاق الجاهلية التى ورثوها كالتعصب والثأر والفخر وما إلى ذلك. لأنهم فى عهد جديد يُعَدُّون فيه لمهمة كبرى لا تناسبها أخلاق الجاهلية، وعلى هذا الضوء لا ينبغى فى عهد الكفاح والتحرر أن يربى الأولاد على كراهية الجندية والمغامرة. تلك الكراهية التى كانت طابع عهود الاستعباد والاحتلال. ولا ينبغى أن تدرس علوم قديمة لا صلة لها بالحاضر ولا تفيد فى المستقبل الإفادة المطلوبة، اللهم إلا من باب الترف العقلى الذى يكون بعد استكمال الضروريات والأساسيات الضاغطة. ولنا فى تهيئة الله لنبيه محمد منذ الصغر وإعداده لمستقبل عظيم ينتظره – ما يؤكد ضرورة ملاءمة العلم والخلق للعصور والأهداف المشروعة، فقد حمى الله نبيه من شهود سهرات اللهو التى كانت تقيمها قريش. ومن عبادة أصنامهم وشهود أعيادها، وألهمه أن يجلس مجالس الكبار، ويعتمد على نفسه ليكون مستعداً للنهوض برسالته الكبرى.

تاسعاً: ومما تجدر الإشارة إليه عدم أخذ الطفل بالجدية الحازمة، وإرهاقه بالعلم واستغلال كل وقته وجهده فى ذلك، بل لا بد من فترات راحة واستجمام يجدد بها نشاطه، ويهيىء نفسه لقبول العلم. والنفس تمل كما تمل الأبدان،

---

(١) الإحياء ج١ ص٤٥، ٤٦.　　(٢) أدب الدنيا والدين ص٣٨.

فلتكن مع المعلومات الجافة والدراسة المرهقة رياضة وإجازات ورحلات وهوايات وأنواع من الترفيه البرىء. يقول الغزالى: وينبغى أن يؤذن له بعد الانصراف من الكتّاب أن يلعب لعبًا جميلاً يستريح إليه من تعب الكتب بحيث لا يتعب فى اللعب، فإنّ منع الصبى من اللعب وإرهاقه إلى التعلم دائمًا يميت قلبه ويبطل ذكاءه، وينغص عليه العيش حتى يطلب الحيلة فى الخلاص منه رأسًا[١].

والدين يدعو إلى اليسر ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، وفى الحديث الشريف «إن الدين متين فأوغل فيه برفق، فإن المنبت لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى» رواه البزار والحاكم والبيهقى عن جابر مرفوعًا، ورجح البخارى إرساله[٢]. وروى الجزء الأول «إن الدين متين فأوغل فيه برفق» أحمد عن أنس بسند حسن[٣] وفيه أيضًا «إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا»[٤] وقال النبى ﷺ لأبى الدرداء وعبد الله بن عمرو بن العاص، وقد أرهقا أنفسهما بالعبادة، «إن لبدنك عليك حقًا ولربك عليك حقًا»[٥]. وقال لحنظلة، وقد خاف من ممارسة العمل فى ماله والخلوة إلى أهله، «والذى نفسى بيده لو تدومون على ما تكونون عندى وفى الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفى طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة» ثلاث مرات[٦]. وقال «هلك المتنطعون» ثلاث مرات[٧]. وقد تقدم شىء من ذلك فى التربية الرياضية.

تنبيه: تحدث العلماء عن أخذ الأجرة على التعليم، وأفاض فى ذلك ابن حجر فى كتابه «تحرير المقال»[٨] وخلاصته أن بعضًا أجاز ذلك، مستدلين بالحديث الصحيح الذى أخذ فيه الصحابة أجرًا على رقية اللديغ بالفاتحة وإقرار النبى لهم عليه وبيان أن أحق شىء يؤخذ عليه أجر هو كتاب الله، وله عدة روايات، كما استدلوا بإرشاد النبى فى الزواج إلى دفع المهر تعليمًا لبعض القرآن.

---

(١) الإحياء ج٢ ص٦٣.
(٢) المواهب اللدنية ج١ ص٢٦١.
(٣) الألبانى على الجامع الصغير للسيوطى.
(٤) رواه البخارى عن أبى هريرة.
(٥) رواه البخارى ومسلم.
(٦) رواه مسلم عن حنظلة.
(٧) رواه مسلم عن ابن مسعود.
(٨) ص٣١-٤٧، ٩٣.

ومنع البعض ذلك، لنهى النبى عن أخذ قميص فى مقابل تعليم رجل سورة من القرآن، أو أخذ قوس، ولحديث «اقرءوا القرآن ولا تأكلوا به» وقول النبى فى المعلمين «درهمهم حرام».

وجمهور العلماء على الجواز بلا كراهة، ومنهم الشافعى ومالك وأحمد، بناء على الأحاديث الأولى، وأبو حنيفة يمنع بناء على ظاهر الأحاديث الثانية. ونقل عن الزهرى رأى كأبى حنيفة. ورد الجمهور بضعف أحاديث المنع كلها، ولئن كانت صحيحة فهى لا تقوى على معارضة ما فى الصحيحين.

* * *

الفصل الثامن
فى إرشادات للمتعلم

فى هذا الفصل ثلاثة فروع

الفرع الأول – إرشادات نحو المعلم

يقول علماء الأدب والأخلاق: لا بد للمتعلم من عقل يدرك حقائق الأمور، وفطنة يتصور بها غوامض العلوم، وذكاء يستقر به حفظ ما تصور وفهم ما علم، ورغبة يدوم بها الطلب ولا يسرع إليها الملل، ونفقة تغنيه عن الكسب، وفراغ يتوفر به على الطلب، وانقطاع الشواغل من نحو همٍّ ومرض، وطول العمر ليستكثر به ويستكمل، والظفر بعالم سخى فى علمه، متين فى خلقه[1].

وعلى ضوء هذا يمكن أن نفصل واجبات المتعلم نحو طلب العلم، فنورد أهمها فيما يلى:

أولاً: الحرص على طلب العلم، لأن العلم شرف، وهو طريق السعادة فى الدنيا والآخرة. يقول معاذ بن جبل: تعلموا العلم فإن تعلُّمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، وهو الأنيس فى الوحدة، والصاحب فى الخلوة، والدليل على الدين، والمصبِّر على السراء والضراء، والوزير عند الأخلاء، والقريب عند الغرباء، ومنار سبيل الجنة، يرفع الله به أقوامًا فيجعلهم فى الخير قادة سادة هداة يقتدى بهم أدلة فى الخير تقتفى آثارهم وترمق أفعالهم...

ويقول مصعب بن الزبير لولده: تعلم العلم، فإن يكن لك مال كان لك جَمَالاً، وإن لم يكن لك مال كان لك مَالاً وقال عبدالملك بن مروان لبنيه: يا بَنَّى تعلموا العلم فإن كنتم سادة فقتم، وإن كنتم وسطا سدتم، وإن كنتم سوقة عشتكم وقال الشاعر:

---

(١) أدب الدنيا والدين للماوردى.

(٢) الإحياء ج١ ص١١.

الناس من جهة التمثيل أكفاء أبوهم آدم والأم حواء
ما الفخر إلا لأهل العلم إنهم على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرىء ما كان يحسنه والجاهلون لأهل العلم أعداء
ففز بعلم تعش حيًّا به أبدا الناس موتى وأهل العلم أحياء

ومن قول على كرم الله وجهه لكميل بن زياد النخعى عامله على هَيْتْ: العلم أفضل من المال. العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والعلم حاكم والمال محكوم عليه، والعلم يزكو بالانفاق والمال تنقصه النفقة، مات خُزَّان الأموال وبقى خزان العلم، أعيانهم مفقودة وأشخاصهم فى القلوب موجودة(١).

وقيل لبزرجمهر – من حكماء الفرس – : العلم أفضل أم المال؟ فقال: بل العلم، قيل: فما بالنا نرى العلماء على أبواب الأغنياء ولا نرى الأغنياء على أبواب العلماء؟ فقال: ذلك لمعرفة العلماء بمنفعة المال وجهل الأغنياء بفضل العلم(٢). وقال بعض الأدباء: الوجود بحر والعلماء جوهره، والزهاد عنبره، والتجار حيتانه، والأشرار تماسيحه، والجهال على ظهره كالزبد.

والحرص على العلم يتطلب ما يأتى:

(أ) المبادرة بالتعلم والسعى إليه من الصغر، وقد تقدمت الإشارة إليه فى مقدمة التربية الأدبية، فإن التعلم فى الصغر كالنقش على الحجر.

تنبيه: [هذه الجملة رويت على أنها حديث عن النبى ﷺ، وجميع طرقه ضعيفة أو منقطعة، وجاء بعبارات منها «من تعلم العلم وهو شاب كان بمنزلة وسم فى حجر، ومن تعلمه بعد ما كبر فهو بمنزلة كتاب على ظهر الماء». وذكره ابن الجوزى فى الموضوعات، وقال بعضهم إنه ليس مرفوعًا إلى النبى ولكنه موقوف على الحسن بلفظ: طلب الحديث فى الصغر كالنقش على الحجر. ويراجع فى الموضوعات لابن الجوزى، واللآلىء المصنوعة للسيوطى، والفوائد

---

(١) نهج البلاغة ج٢ ص١٧٢.
(٢) أدب الدنيا والدين ص٢٥.

المجموعة للشوكاني، وكشف الخفا والإلباس للعجلوني، والمقاصد الحسنة للسخاوى].

ونقل الأصفهانى فى كتابه «محاضرات الأدباء» قول بعضهم: بادروا بتعليم الأطفال قبل تراكم الأشغال، فإنه وإن كان الكبير أوفر عقلاً، إلا أنه أشغل قلبًا، وقد مرت نماذج ممن نبغوا فى العلم وهم فى سن مبكرة.

(ب) عدم الانقطاع عن التعليم عند الكبر، فالإنسان فى حاجة إلى التعلم من المهد إلى اللحد، ومهما بلغ الإنسان قدراً من العلم فهو ما يزال فى حاجة إلى الزيادة. قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]. وليست هناك غاية ينتهى إليها العلم، قال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] وقال: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦] ويقول ابن المبارك: لا يزال المرء عالما ما طلب العلم، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل[١]. ونسب إلى الشافعى قوله:

كلما أدبنى الدهر أرانى نقص عقلى وإذا ما زدت علمًا زادنى علما بجهلى

ومما يدل على حرص السابقين على التعلم حتى فى آخر رمق ما ذكره ياقوت فى معجمه: أن الفقيه على بن عيسى الولواجى قال: دخلت على أبى الريحان البيرونى وهو يجود بنفسه الأخير فقال لى: كيف قلت لى يومًا حساب الجدات؟ فقلت إشفاقًا عليه: أفى هذه الحال؟ فأجاب: يا هذا أدع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة، ألا يكون خيراً من أن أخليها وأنا جاهل بها؟[٢].

(جـ) المواظبة على الدروس ومجالس العلم، فقد تفوت المتعلم مسألة هامة أو شرح لموضوع غامض لا يسهل الحصول عليه فى غير هذه الفرصة، وتتأكد المواظبة بالنسبة للدروس العملية التطبيقية. ومما يؤثر فى ذلك أن ابن رشد لم يتخلف عن شهود مجلس العلم إلا ليلتين، ليلة وفاة أبيه، وليلة بنائه بزوجته[٣]. ويروى عن أبى يوسف قاضى القضاة أنه قال: مات لى

---

(١) الإحياء ج١ ص٥٣.
(٢) تاريخ التربية ص٣٠٥.
(٣) مجلة الأزهر مجلدا موضوع كبر الهمة للخضر حسين.

ولد فأمرت من تولى دفنه ولم أدع مجلس أبى حنيفة خوف أن يفوتنى منه يوم[1].

(د) الإلمام بمبادىء العلوم، والأخذ من كل علم بطرف، خصوصاً ما يحتاجه الناس ويتداول بينهم ويكثر الحديث عنه، فالجهل بهذه المبادئ فضيحة، وذلك داخل تحت عموم قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤]. وكان علماء السلف ملمين بمعارف زمانهم، غير مقتصرين على نوع واحد أو أنواع خاصة من المعرفة، وذلك لتضامن العلوم كلها فى الثقافة وخدمة المجتمع. وكان فيهم عدد كبير يصح أن يكونوا نماذج للمتعلمين. ويكفى أن نذكر أن الفارابى كان واسع الاطلاع جَمَّ المعرفة، ضرب فى كل علم بسهم وافر، وأخذ من كل العلوم بنصيب كبير، يذكرون أنه دخل على سيف الدولة ابن حمدان، فلما أمره بالجلوس قال: أجلس حيث أنا أو حيث أنت؟ فقال: بل حيث أنت، فتقدم وزاحمه على الكرسى. ولما كبر عليه ذلك اختبره فوجده على علم غزير واطلاع واسع بَزَّ به أقرانه، مع إجادة عدة لغات وتمم مجلسه بإظهار تفوقه فى الموسيقى، فضرب لحنًا ثم لحنا... لكل منها تأثيره الخاص، وفى النهاية ضرب لحنا أنام الحاضرين وتركهم وخرج. وهذه الحادثة وإن كان يستغربها بعض الكاتبين[2] إلا أن القدر المتفق عليه أنه كان على اطلاع واسع، مثله مثل كثير من العلماء كابن سينا وابن رشد والكندى والبيرونى والسيوطى.

ومن أراد أن يتخصص فى علم من العلوم فليكن بعد المعارف الأولية العامة، وإذا كنا ندعو إلى الحرص على الألوان المختلفة فى مبادىء العلوم فأننا نركز على العلوم الهامة التى يستفاد منها فى مجال التطبيق، أو تتصل بحاضر الجماعة ومستقبل الأمة أو تخدم خدمة ظاهرة. أما علوم التسلية البحتة والألغاز المستعصية والعلوم المندثرة فالأولى إدخال الجهد فيها لما هو أهم. يقول سهل بن هارون: إن من أصناف العلوم ما لا ينبغى للمسلمين أن ينظروا فيه، وقد يرغب عن بعض العلم كما يرغب عن بعض الحلال.

هذا، وأنصح بتعليم اللغات الأجنبية ما استطاع الناشىء إلى ذلك سبيلا،

---

(١) تاريخ التربية ص٣٠٤.

(٢) تراث الإنسانية ج٢ ص٥٧٣.

فهى الباب الواسع والنافذة الكبرى التى يطل منها على العالم كله، يقول الشاعر:

بقدر لغات المرء يكثر نفعه وهُنَّ له عند الشدائد أعوان
فبادر إلى حفظ اللغات مسارعا فكل لسان فى الحقيقة إنسان

روى البخارى تعليقا والبغوى وأبو يعلى موصولا عن زيد بن ثابت الأنصارى قال: اتُّىَ بى إلى النبى ﷺ مقْدَمَهُ المدينة، فقيل: هذا غلام من بنى النجار وقد قرأ سبع عشرة سورة، فقرأت عليه فأعجبه ذلك، فقال «تعلَّم كتاب يهود، فإنى ما آمنهم على كتابى. فتعلمت فما مضى لى نصف شهر حتى حذقته، فكنت أكتب له إليهم، وإذا كتبوا إليه قرأت له[1]. وعن أبى جمرة: كنت أترجم بين ابن عباس وبين الناس، فقال: إن وفد عبد القيس أتوا النبى...[2]. فتعلُّم اللغات مشروع يجب أن يكون فى الوطن من يتقنونها كلها حتى لا يعيش المجتمع فى عزلة عن العالم الذى غزا بثقافته ووسائل اتصالات كل مناطق الأرض.

(هـ) عدم الاستحياء من السؤال عما يجهل، فالله تعالى يقول: ﴿ **فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧]، ويقول: ﴿ **فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ** ﴾ [يونس: ٩٤] والعلم خزائن مفاتحيها السؤال، وشفاء العىّ – كما يقولون – هو السؤال[3]. والسؤال بقصد الاستفادة للعمل مأمور به، أما السؤال لغرض الجدل والمماراة والتشكيك وإظهار المقدرة العلمية فمنهى عنه، ويحمل عليه قوله ﷺ «إن الله كره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال»[4] وقوله «ذرونى ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم»[5].

---

(١) الزرقانى على المواهب ج٣ ص٣٢٣.
(٢) البخارى ج١ ص٣٢.
(٣) أدب الدنيا والدين ص٦٢.
(٤) رواه البخارى عن المغيرة بن شعبة.
(٥) رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة.

وكيف يذم السؤال من أجل المعرفة الجادة وابن عباس لما سئل: بم نلت العلم؟ قال: بلسان سؤول وقلب عقول. والصحابة كانوا يسألون النبى ﷺ فيما يهمهم من أمور الدين، وقد ورد فى الحديث «حسن السؤال نصف العلم» رواه البيهقى وابن السنى عن أنس، وله شواهد(١).

ويتصل بهذه النقطة عدم حياء البنت من السؤال عن أمور يستحيا منها فى غير مقام التعلم، كالمسائل الجنسية. وليكن عرض الموضوع والإجابة عليه بصورة مؤدبة كريمة، تبدو فيها الجدية والرغبة الصادقة فى المعرفة. وقد مدحت السيدة عائشة نساء الأنصار بأن الحياء لم يمنعهن من التفقه فى الدين كما رواه البخارى ومسلم. سألت أم سليم رسول الله ﷺ عن حكم الاحتلام قائلة: إن الله لا يستحى من الحق، وقد أخذت عليها عائشة هذه الصراحة المكشوفة قائلة: فضحت النساء، تربت يمينك، فقال لها النبى ﷺ «بل أنت تربت يمينك»(٢).

(و) الضَّنُّ بالوقت أن يشغل بغير العلم وما يساعد عليه، فلا ينبغى صرفه فى اللهو الفارغ الذى لا يقصد به الترويح والاستجمام لمعاودة تلقى العلم. ويتأكد ذلك فى أيام الشباب، حيث القوة البدنية والأمل الواسع وقلة الصوارف والهموم. ويقول النبى ﷺ «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ»(٣) ويقول «اغتنم خمساً قبل خمس، شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك»(٤). وقال بعض البلغاء: من أمضى يومه فى غير حق قضاه، أو فرض أداه، أو مجد أثَّله، أو حمد حصله، أو خير أسسه، أو علم اقتبسه، فقد عق يومه وظلم نفسه(٥) يقول الإمام الشافعى:

---

(١) المواهب اللدنية ج١ ص٢٦٢.
(٢) رواه مسلم ج٣ ص٢٢.
(٣) رواه البخارى عن ابن عباس.
(٤) رواه ابن أبى الدنيا باسناد حسن عن ابن عباس.
(٥) أدب الدنيا والدين ص٤٥.

سهرى لتنقيح العلوم ألذّ لى ... من وصل غانية وطيب عناق
وتمايلى طربا لحل عويصة ... أشهى وأعظم من مدامة ساق
وألذ من نقر الفتاة لدفها ... نقرى لألقى الرمل عن أوراقى
وصرير أقلامى على صفحاتها ... أبهى من الدوكاء والعشاق
أأبيت سهران الدجى وتبيته ... نوما وتبغى بعد ذاك لحاقى؟

(ز) عدم ترك المسألة تمر دون الوقوف أمامها والتأمل فيها لفهمهما وتقليب النظر فى جوانبها لتستقر فى بؤرة الشعور، فتثبت وترسخ فى الذهن، فالمعارف العابرة التى تمس حاشية الشعور فقط سريعة التبخر، ولا تركنن على أنك تستطيع الرجوع إليها فى الكتب عند الحاجة، فقد تضطر إليها ولا سبيل إلى الكتب أو قد يصعب عليك العثور على موضعها منها، يقول العرب فى أمثالهم: حرف فى قلبك خير من ألف فى كتبك . ويقولون: لا خير فى علم لا يعبر معك الوادى، ولا يعمر بك النادى، ويقول الشافعى:

علمى معى حيثما يممت ينفعنى ... قلبى وعاء له لا بطن صندوقى
إن كنت فى البيت كان العلم فيه معى ... أوكنت فى السوق كان العلم فى السوق

(حـ) عدم حفظ المسائل دون فهم لها، حتى لا تكون كنزا ضاعت مفاتيحه، والحافظ غير الفاهم كالكتاب المسطور لا يدفع شينا ولا يؤيد حجة، أو كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه. أو كما يقول القائل:

ومن المصائب والمصائب جمة ... قرب الدواء وما إليه وصول
كالعيس فى البيداء يقتلها الظما ... والماء فوق ظهورها محمول

(ط) تقييد العلوم فى الكتب ليضمن وجودها، فإن الحفظ وإن كان محموداً غير أن الذاكرة معرضة للضعف، والنسيان محتمل لكبر السن أو للمرض أو لشواغل أخرى، وفى هذا يقول الخليل بن أحمد: ما فى الكتب رأس المال، وما فى قلبك النفقة، كما أن العلم المقيد يمكن أن يستفيد منه الغير بالاطلاع

عليه إذا لم يستطع أن يتعلمه ويتلقاه من صاحبه . يقول «مهبوذ» : لولا ما عقدته الكتب من تجارب الأولين لا نحل مع النسيان عقود الآخرين[1] .

ويقول الشاعر:

العلم صيد والكتابة قيده ... قيد صيودك بالحبال الواثقة

فمن الحماقة أن تصيد غزالة ... وتعيدها بين الخلائق طالقة

(ى) أخذ العلم من جميع مظانه وبجميع وسائله، فى المدرسة والمكتبة والبيت والنادى والفضاء، من الصحف والمجلات والإذاعات والمحاضرات وسائر الوسائل، ففى الحديث «الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أجدر بها» رواه الترمذى وقال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وفى معناه «خذ الحكمة ولا يضرك من أى وعاء خرجت» . بل إن من الحيوانات والطيور والجمادات ما يمكن للإنسان بالتأمل فيه أن يفيد معارف وأخلاقًا، ولا يضير هذه المأخوذات أن تكون هذه الأشياء مصادرها وأوعيتها، فابن المقفع يقول: اللؤلؤة الفاتنة لا تهون بهوان غائصها الذى استخرجها[2] . قال الرياحى فى خطبته بالمربد: يا بنى رياح، لا تحقروا صغيرًا تأخذون عنه، فأنى أخذت من الثعلب روغانه، ومن القرد حكايته – تقليده ومحاكاته – ومن السِّنَّوْر ضَرَعه، ومن الكلب نصرته، ومن ابن آوى حذره، ولقد تعلمت من القمر سرى الليل، ومن الشمس ظهور الحين بعد الحين[3] . وحكى المسعودى عن بعض حكماء الفرس أنه قال: أخذت من كل شىء أحسن ما فيه، حتى انتهى بى ذلك إلى الكلب والهرة والخنزير والغراب . قيل له: فما أخذت من الكلب؟ قال: إلفه لأهله وذَبّه عن صاحبه . قيل: فما أخذت من الهرة؟ قال: حسن تأنيها وتملقها عند المسألة، قيل: فما أخذت من الخنزير؟ قال: بكوره فى حوائجه . قيل: فما أخذت من الغراب؟ قال: شدة حذره[4] .

---

(١) أدب الدنيا والدين ص٤٩ .
(٢) تاريخ التربية ص٣٠١ .
(٣) العقد الفريد ج١ ص١٥١ .
(٤) حياة الحيوان للدميرى – غراب .

ثانيًا : الصبر والتحمل للمشاق فى سبيل الحصول على العلم، فأن الضجر يقيد الهمة ويفوِّت الفرصة، ومن لم يتحمل ذل التعلم ساعة بقى فى ذل الجهل أبدًا ومن تعب صغيرًا استراح كبيرًا، ومن جلس صغيرًا حيث يكره جلس كبيرًا حيث يحب، فلا تتألم من التمارين القاسية والواجبات الكثيرة والمسائل المعقدة، والسنوات الطويلة والمواصلات الصعبة والعيش الخشن والجو القاسى والنفقات الباهظة، فكل ذلك يهون فى سبيل الغاية الكريمة، يقول ابن عباس: ذللت طالبًا فعززت مطلوبًا[1]. ويقول الأصفهانى فى المحاضرات: لا يتأدب الرجل حتى يتجنب الفراش الوطىء والدثار الدفىء، وذكر ياقوت فى معجمه أن الأحمر صاحب الكسائى كان رجلاً نَوْبيًا – صاحب نوبة – على باب الرشيد، وكان يحب علم العربية، فكان يرصد مسير الكسائى إلى الرشيد ويعرض له فى طريقه كل يوم، فإذا أقبل تلقاه وأخذ بركابه، ثم أخذ بيده وأنزله وما شاه إلى أن يبلغ الستر، وسأله فى طريقه عن المسألة فإذا دخل الكسائى رجع الأحمر إلى مكانه، حتى إذا خرج الكسائى من الدار تلقاه لدى الستر وأخذ بيده وساءله إلى أن يركب ويجاوز المضارب ثم ينصرف إلى الباب، فلم يزل كذلك يتعلم المسألة بعد المسألة حتى تمكن، ثم صار بعد ذلك معلمًا لأولاد الرشيد[2].

وكان ابن عباس يتحمل المشاق فى سبيل تحصيل العلم، فقد انتظر على باب زيد بن ثابت من الظهر إلى العصر بين الحر والريح السافية حتى إذا خرج سأله ما يريد، وسيأتى بتمامه، وصور التحمل كثيرة، منها:

(أ) تحمل متاعب الرحلات والأسفار والبعثات إلى البلاد النائية فى أجواء مختلفة ومجتمعات متغايرة وطباع متنوعة، والإسلام حث على طلب العلم ولو فى أقصى البلاد[3]، وقد وصل طلاب العلم فى الماضى إلى أقاصى البلاد، يتلقون العلم عن العلماء الموزعين فى الأمصار، قبل أن توجد الكتب وتبنى

---

(١) أدب الدنيا والدين ص٥٩. (٢) تاريخ التربية ص٣٠٥.

(٣) حديث «اطلبوا العلم. ولو فى الصين» متنه مشهور وسنده ضعيف كما قال العراقى – الإحياء ج١ ص٨.

المدارس وتيسر السبل، فكان الواحد منهم يسافر شهوراً من أجل حديث واحد ومسألة واحدة، وقد يجد ناقة يركبها وقد يمشى على قدميه فى طرق غير معبدة ومسالك موحشة غير مألوفة. وصدق الذى يقول:

تريدين إدراك المعالى رخيصة ولابد دون الشهد من إبر النحل

يقول أبو الدرداء: لو أعيتنى آية من كتاب الله فلم أجد أحداً يفتحها على إلا رجلاً ببَرْك الغُمَاد لرحلت إليه: وبرك الغماد مكان بالحبشة، والمراد المبالغة فى بعد المكان، ويقول الشعبى: لو أن رجلاً سافر من أقصى الشام إلى أقصى اليمن ليسمع كلمة حكيمة ما رأيت أن سفره ضاع[1] وسافر جابر بن عبد الله إلى محمد بن مسلمة والى مصر ليسمع حديثًا فى ستر المؤمن، ثم رجع دون أن يدخل له داراً أو ينزل عن ناقته كما رواه الطبرانى فى الأوسط[2]. ورحل مسروق ابن الأجدع من الكوفة إلى البصرة ليعلم تفسير آية فقيل له: إن المفسر فى الشام فسار سإليه حتى علمها[3]. ورحلة الشافعى لطلب العلم فى المدينة ومكة واليمن والعراق ومصر مشهورة، على الرغم من قلة المال وصعوبة المواصلات. كذلك رحلة البخارى فى جميع الأمصار ليجمع الحديث فى ستة عشر عاماً، أنتجت جامعه الصحيح الذى أجمع العلماء على أنه أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى، ورحل سهل التسترى وهو ابن ثلاثة عشر عاماً إلى البصرة وغيرها، كما رحل يحيى بن يحيى الليثى من قرطبة، وعمره ثمان وعشرون سنة، إلى المشرق فسمع من مالك بالمدينة وسفيان بن عيينة بمكة والليث بن سعد وغيره بمصر، ثم عاد إلى الأندلس، ويحكى ابن خلكان أن ابن الخطيب التبريزى حمل كتاب التهذيب فى اللغة على ظهره، وكان فى عدة مجلدات، وسار على رجليه من تبريز بفارس إلى معرة النعمان بالشام ليحقق الكتاب على أبى العلاء المعرى، ومن كثرة عرقه تسرب إلى الكتاب وبلّله وهو حامله[4]. وغير هؤلاء كثيرون رحلوا

---

(١) تاريخ التربية ص٣٠٨.
(٢) الترغيب والترهيب ج٣ ص٩٨.
(٣) مقدمة تفسير القرطبى.
(٤) تاريخ التربية ص٣١١.

إلى البادية وتنقلوا فى المدن لطلب العلم، كما كان هناك رحالة للكشف كابن بطوطة وابن جبير وغيرهما.

(ب) ومن مظاهر الصبر والتحمل عدم اليأس إذا تعثر فى الطريق مرة وتخلف عن زملائه سنة مثلاً، فالطريق ليست دائماً مفروشة بالورد[1] ومن سار على الدرب وصل، ومن مدّ القرع للأبواب سيلج لا محالة.

وقَلَّ مَنْ جدَّ فى أمر يحاوله ... واستشعر الصبر إلا فاز بالظفر

وكم هناك من عظماء تعثروا فى الطريق ثم كتب لهم النجاح بعد، وفى ذلك حكمة لا يعلمها إلا الله وبعض الراسخين، ولعل من الحكمة أن يذوق الإنسان مرارة الإخفاق ليدرك حلاوة النجاح، فبضدها تتميز الأشياء، وقد تكون الحكمة هى التفطن لمواطن الخطأ وتلافيها فى المستقبل، أليس فى الدرس الذى أخذه المسلمون فى غزوة أحد عبرة؟ قال تعالى: ﴿**إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ**﴾ [آل عمران: ١٤٠، ١٤١] ﴿**أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ**﴾ [آل عمران: ١٦٥]. ومن هنا لا ينبغى أن تظلم الحياة فى وجه الناشىء، ويتمنى الموت للخلاص منها، وقد مرَّ قول النبى ﷺ: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر أصابه، فإن كان لا بد فاعلاً فليقل، اللهم أحينى ما كانت الحياة خيراً لى، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى»[2]. وإذا كان النبى ينهى عن مجرد تمنى الموت فهو ينهى أشد النهى من باب أولى عن التخلص الفعلى من الحياة بالانتحار، فهو جريمة كبرى يصور بشاعتها قول النبى ﷺ «من قتل نفسه بحديدة فحديدته فى يده يتوجأ فى بطنه فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن شرب سما فقتل نفسه فهو يتحساه فى نار جهنم خالداً مخلداً

---

(١) الطريق يذكر ويؤنث.

(٢) رواه البخارى ومسلم عن أنس.

فيها أبداً، ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو يتردى فى نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً»[1].

(جـ) ومن صور التحمل عدم التبرم بالعقاب الذى يوقع على الناشىء نتيجة الخطأ، فهو لإصلاحه وتهذيبه. والمريض يتجرع الدواء المر، وتجرى له العملية الجراحية الشاقة. بغية الشفاء والراحة. ولا أدل على رضا العقلاء بهذا العقاب من القول المتداول «عصا الفقيه من الجنة» وهى كلمة كانت تسمع إلى عهد قريب قبل أن تظهر النظريات التربوية الجديدة التى توصى بعدم ضرب الأولاد، وكم خرَّجت هذه العصا من علماء وأبطال، وكان الأقدمون لا يرون بأساً من ضرب المعلم لأولادهم بل كان كثير من الأولاد إذا ضرب استحيا أن يخبر أهله، وقد مر بك قول الرشيد لأبى مريم فى تأديب ولده، وقد ضربه: اقتله، فلأن يموت خير من أن يموق. وحدث أن أبا محمد اليزيدى مؤدب المأمون ضربه حتى أبكاه، فلما دخل عليه الوزير جعفر بن يحيى بادر بمسح دموعه وجلس كأن لم يكن شىء، فتركهما المؤدب وخاف أن يخبره بذلك، فلما انصرف جعفر سأل المأمون: هل أخبره بشىء، فقال: ما كنت لأطلع الرشيد على هذا فكيف بجعفر؟ إنى أحتاج إلى أدب[2].

ثالثا: عدم الشواغل التى تصرف الطالب عن العلم، وتوفير الراحة له ليقبل عليه تحصيلاً وتركيزاً، فالعلم، كما قيل، لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك، ومن هنا امتدحوا للطالب ألا يرتبط بزواج أو عمل خارجى إذا كان مستغنياً عنه، كما امتدحوا التغرب عن مسقط رأسه بُعْداً عن مشاغل الأسرة والناس، وهذا كله من وحي قوله تعالى: ﴿**مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ**﴾ [الأحزاب: ٤]. ذكر ياقوت فى معجمه أن محمد بن القاسم الأنبارى كانت عنده جارية جميلة فتن بها، فكان إذا طلب مسألة خفيت عليه شغل قلبه بها، فقال لخادمه: خذها إلى الناس وبعها، فليس يبلغ قدرها أن يشغل قلبى عن علمى[3].

رابعا: تطبيق العلم على العمل والتخلق بما يتعلمه من الأخلاق، وقد سبق

---

(١) رواه مسلم عن أبى هريرة.

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص٢٠٩.

(٣) تاريخ التربية ص٣٠٥.

أن التطبيق يثبت المعلومات ويركز الأخلاق ويمرّن عليها، وكل شيء بالممارسة يقوى ويتأكد، كما سبق قولهم: العلم يهتف بالعمل، فإن أجاب وإلا ارتحل، وقول المهلب بن أبى صفرة فى الإفادة من علمه وعدم استفادة غيره منه، ذاك علم حمل، وهذا علم استعمل، والقليل من العلم مع التطبيق خير من كثير مهمل، قال تعالى: ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا** ﴾ [الجمعة: ٥] وجاء صعصعة عم الفرزدق إلى النبي ﷺ يتعلم القرآن، فلما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] قال: حسبى لا أبالى ألا أسمع غيرها، فلما انصرف قال له النبى ﷺ: «أفلح الرُّوَيْجِل»[١] وفى رواية قال «انصرف وهو فقيه» رواه أبو داود والنسائى وابن حبان والحاكم وصححه من حديث عبد الله ابن عمر[٢].

على أن التطبيق قد يخلق معلومات جديدة ويكشف مجهولات، ويوجد حلولاً ويفتح مغاليق، ولعل مما يشير إلى ذلك القول المأثور: من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم، وليس هذا بحديث بل ذكره أحمد عن بعض التابعين عن عيسى[٣].

خامسًا: تقوى الله، بالمحافظة على فعل الأوامر واجتناب النواهى، فإن من آثارها نور البصيرة والتوفيق إلى الصواب، وتيسير الأمور وتفريح الكروب، وهى أمور لازمة لطالب العلم ولكل مجاهد فى الحياة، قال تعالى: ﴿ **إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ** ﴾ [الأنفال: ٢٩] أى يجعل لكم قوة تفرقون بها بين الحق والباطل والخطأ والصواب، وهى تعتمد على صفاء العقل وحدَّة الذهن وإشراق الروح، وقال: ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ**

---

(١) تصغير رجل على غير قياس ولعله تصغير راجل أى ماش وليس راكبًا.

(٢) الإحياء ج١ ص٢٥٨.

(٣) غذاء الألباب ج١ ص٣٨.

يُسْرًا ﴾ [الطلاق : ٥] وقال : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق : ٤] . وقال الشافعى :

شكوت إلى وكيع سوء حفظى ... فأرشدنى إلى ترك المعاصى
وأخبرنى بأن العلم نور ... ونور الله لا يهدى لعاصى

ومن التقوى أن يطلب العلم لا يقصد به مالا أو شهرة، أو شيئًا من زخرف الدنيا، ومن قصد بعلمه وجه الله أغناه من فضله وأعلى قدره ويسر له الأمر وأتته الدنيا راغمة، والتعلم بهذه النية يريح الطالب من الحيرة عند اختيار نوع معين من التعليم فى المعاهد والكليات، فهو يجتهد ويستخير ويستشير ليطمئن على مستقبله فى كليه تُدرُّ عليه ربحًا كبيرًا، أو توصل إلى منصب له شأن، كما أن التلهف على الدنيا وطلبها عن طريق العلم يوقع الناشىء فى مآزق، ويدخله مداخل السوء التى تمس شرفه وكرامته فهو يذل ويهون ويتملق ويكذب ويسعى ليصل إلى غرضه عن هذا الطريق.

لقد كان الأئمة الأعلام يطلبون العلم لذات العلم، ويعلِّمون الناس لوجه الله، ولا يرضون بعلمهم بديلاً مهما كان شأنه، هذا مالك بن أنس لم يرض بجوار النبى ﷺ بديلاً من منصب أو مال فى بغداد، وأبو حنيفة كان تاجرًا يكسب قوته من عمله، والشافعى كانت توهب له الأموال فيوزعها، مكتفيًا بالقليل الذى يحفظ حياته ويصون عرضه وشرفه، ويساعده على طلب العلم ونشره، وهو القائل فى عفة الناس عن الدنيا :

أمطرى لؤلؤًا سماء سرند ... يب وفيضى أنهار تبريز تبرا
أنا ما عشت لست أعدم قوتا ... وإذا مت لست أعدم قبرا
همتى همة الملوك ونفسى ... نفس حر ترى المذلة كفرا

والقائل أيضًا :

علىَّ ثياب لو تباع جميعها ... بفلس لكان الفَلسْ منهن أكثرا

وفيهن نفس لو يقاس ببعضها نفوس الورى كانت أجل واكبرا
وما ضرَّ نصل السيف إخلاق غمده إذا كان عَضْبا حين وجهته برى

وليعلم الطالب أن السعادة فى الدنيا ليس طريقها المال أو المنصب وحسب، فهى معنى باطنى ينبع من داخل النفس أساسه القناعة والرضا والشعور بالعزة والكرامة، وكم لأصحاب الأموال والمناصب من هموم!! قال زياد لأصحابه: من أغبط الناس عيشا؟ قالوا: الأمير وأصحابه، قال: كلا، إن لأعْواد المنابر لهيبة، ولقرع لجام البريد لفزعة، ولكن أغبط الناس عيشا رجل له دار يسكنها وزوجة صالحة يأوى إليها، فى كفاف من عيش لا يعرفنا ولا نعرفه، فأن من عرفنا وعرفناه أفسدنا آخرته ودنياه[1] كما أن العلم ليس وحده طريق المال فله طرق كثيرة، وخيره ما أغنى صاحبه عن الناس وحفظ عليه دينه ودنياه.

فليكن طلب العلم لذات العلم، فهو شرف لا يعدله شرف وليقصد به وجه الله فإنه لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وليسمع قول النبى ﷺ: «لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولتماروا به السفهاء، ولتصرفوا وجوه الناس إليكم، فمن فعل ذلك فهو فى النار»[2] وقوله «من طلب علمًا مما يبتغى به وجه الله ليصيب به عرضًا من الدنيا لم يجد عَرْفَ الجنة يوم القيامة»[3] وقوله «أوحى الله عز وجل إلى بعض الأنبياء، قل للذين يتفقهون لغير الدين ويتعلمون لغير العمل، ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة، يلبسون للناس مسوك الكباش وقلوبهم قلوب الذئاب، ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمرَّ من الصبر، إياى يخادعون وبى يستهزئون، لأتيحنَ لهم فتنة تذر الحليم حيران»[4].

* * *

(١) العقد الفريد ج١ ص٢٩٤. (٢) رواه ابن ماجه بإسناد صحيح.
(٣) رواه أبو داود وابن ماجه عن أبى هريرة باسناد جيد.
(٤) رواه ابن عبد البر بإسناد صحيح عن أبى الدرداء.

الفرع الثانى

إرشادات نحو المربى

المعلم أب روحى، وتقدم قول الرسول ﷺ: «إنما أنا لكم مثل الوالد لولده» وقد رجح كثير من العلماء حقه على حق الوالد، وقالوا فى ذلك: الآباء ثلاثة، أب ولدك، وأب رباك، وأب علمك، وخير الآباء من علَّمك، الوالد يربى جسمًا فانيًا، والمعلم يربى روحًا باقيًا، كما يقول الشاعر:

من علَّم الناس كان خير أب ذاك أبو الروح لا أبو الجيف(١)

ويقول شوقى:

قم للمعلم وفِّه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا

ومن كانت منزلته كذلك يجب أن يكَّرم ويحترم، وقد جاء فى القول المأثور عن أنس: من وقَّر عالما فقد وقر ربه، وقد أخذ عبد الله بن عباس بركاب زيد بن ثابت وهو يركب بغلته، فلما قال له زيد: خلِّ عنها يا ابن عم رسول الله، قال: هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا وكبرائنا، فقبَّل زيد يده وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا. رواه الطبرانى والحاكم والبيهقى وقال الحاكم: صحيح الإسناد على شرط مسلم.

أشرف الرشيد خلْسةً على الكسائى وهو يعلِّم ولديه الأمين والمأمون، فلما انفض المجلس وقام الكسائى قدَّم إليه التلميذان نعله، فقبَّل رأسيهما وعزم عليهما ألا يعودا، بعد مدة قال له الرشيد: أى الناس أكرم خدما؟ قال: أمير المؤمنين أعزه الله: فقال: لا، بل الكسائى يخدمه الأمين والمأمون، وحَّدثه الحديث. وكان الواثق يكرم مؤدبه للغاية، ولما سئل مَنْ هذا الذى فعلت به ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: هذا أول من فتق لسانى بذكر الله، وأدْنانى من رحمة الله(٢).

---

(١) أدب الدنيا والدين ص٦١.

(٢) تاريخ السيوطى ص٢٢٨.

وإذا كان احترام المودب لمنزلته وشرفه فإن ذلك أيضًا سبب فى إقباله على الطالب والإخلاص فى تعليمه، كما يقول القائل:

إن المعلم والطبيب كلاهما ... لا ينصحان إذا هما لم يكرما
فاصبر لدائك إن جفوت طبيبه ... واصبر لجهلك إن جفوت معلما

وبتمثل احترامه فى مظاهر كثيرة، منها:

(أ) طاعته والاستجابة لتوجيهاته، فهو أدرى بالخير له، وهو أمامه كالطبيب، فلا بد من تقبل دوائه وعلاجه، والامتثال لإرشاداته.

(ب) التواضع له وعدم التكبر عليه، فالطالب محتاج، ومن كان محتاجا كان أقل من المحتاج إليه، ويتبع ذلك عدم احتقاره لرقة حاله أو تواضع ملبسه مثلاً، فإن شرفه فى علمه وخلقه وكونه معلمًا لغيره، لا فى ماله ومظهره، ويقول القائل:

فالمسك بَيْنَا تراه ممتهنا ... بِفِهْرِ عطاره وساحقه
حتى تراه فى عارضى ملك ... وموضعَ التاج من مفارقه[1]

(جـ) الأدب معه فى الحديث ونداؤه بألفاظ التكريم، وعدم الإدلال عليه حتى لو رفع الكلفة، كما يكون بعدم إظهار الاستغناء عنه، أو بأنه أعلم منه، فذلك طعن لا يقبله أى إنسان عادى، فكيف بمن رباك وكان صاحب الفضل عليك؟ وذلك كفر بالنعمة واستهانة بالحقوق، يقول الشاعر:

أعلمه الرماية كل يوم ... فلما اشتد ساعده رمانى

ويقول صالح بن عبد القدوس:

وإنَّ عناءً أن تعلم جاهلا ... فيحسب جهلا أنه منك أعلم[2]

د – الإصغاء إليه والإقبال عليه فى درسه، والخشوع فى مجلسه وعدم التشويش عليه أو التشاغل عنه، وليكن الطالب فى مجلسه كالمنصت لخطبة

---

(١) أدب الدنيا والدين ص٥٩.
(٢) المرجع السابق ص٦٠.

الجمعة، من تكلم فقد لغا، ومن مَسَّ الحصا فقد لغا، ومن قال لغيره: أنصت فقد لغا، ومن تخطى الرقاب فقد لغا، والإصغاء سبيل العلم والتمكن منه، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧].

(هـ) التذلل للمعلم ليظهر له مكنون علمه ويشرح صدره للإفادة منه، وقد روى عن معاذ: ليس من أخلاق المؤمن الملق إلا فى طلب العلم[١].

* * *

(١) أدب الدنيا والدين ص٩٠.

الفرع الثالث

إرشادات نحو الزملاء

ليعلم التلاميذ أن العلم رحم بين أهله، جمعهم على مائدة واحدة، على الرغم من تعدد أجناسهم واختلاف طبقاتهم ومراكز آبائهم، فليتعامل بعضهم مع بعض كأخوة فى أسرة، بالتعاطف والتراحم والتعاون والمحبة والإيثار والتواضع وسائر الأخلاق الاجتماعية المعروفة.

وليجتهد التلميذ أن يتخذ له مجموعة طيبة حسنة الأخلاق مقبلة على العلم، ليتأثر بهم ويفيد منهم، فالصبى - كما يقول ابن سينا - عن الصبى أَلْقَن، وهو منه آخذ، وبه آنس[1]. ومن تمام الفائدة أن أدوِّن هنا مقترحات أحد رجال التربية لتؤدى التربية الدينية دورها فى المدرسة، وهى مقترحات جديرة بالتقدير تتلخص فيما يأتى:

إن التربية الروحية لا تحتاج إلى عناصر جديدة غير تلك التى تقدَّم الآن فى المدارس، وإنما تحتاج إلى الإيمان بأهميتها، وضرورة العمل لتحقيق أهدافها، وإتاحة الفرصة لمبادئها فى أن تأخذ مكانها فى شخصية المدرس ونظام المدرسة والنظرة الخلقية الداخلية والمثالية، التى تنبع من الدراسات العادية والتعاليم العربية عن الأخلاق والتوجيه المتزن المباشر المنتظم فى كل نواحى سلوك التلاميذ.

ودور المعلم كقدوة دورٍ خطير فى التربية وكذلك المدرسون يمكنهم أن يجعلوا من المدرسة مجتمعًا سعيدًا. ولا تثمر دروس الدين إلا إذا جعلت تعاليمها مادة حية فى أذهان التلاميذ وحياتهم، بممارستهم لها ومراقبتهم فى حزم وعزم لتصبح طبيعة فيهم وسلوكًا لهم، ويقوم النشاط الدينى فى المدرسة على الأسس التالية:

---

(١) تاريخ التربية ص٢٩٢.

١ ـ تحديد الهدف مع وضوحه ورسم خطة العمل له.

٢ ـ أن يكون النشاط ملائماً لمستويات الطلاب، مراعى فيه الفروق التى بينهم، محققاً لحاجات نموهم.

٣ ـ توافر الحرية المنظمة عند ممارسة النشاط، حتى لا يكون بالضغط عملاً مكروهاً.

٤ ـ أن يقوم النشاط على الديمقراطية والتعاون وتحمل المسئولية.

٥ ـ تنوع النشاط بتعدد الميادين والأساليب، حتى ينمى فى الطالب صفات واتجاهات وقدرات متنوعة.

٦ ـ مراعاة التجانس فى الميول عند تكوين الجماعات.

٧ ـ مراعاة القصد فى النفقات وتعاون أولياء الأمور مع المدرسة فى ذلك.

٨ ـ تحقيق التوازن بين النشاط أو المناهج، فكل منهما مكمل للآخر.

٩ ـ تحقيق الترابط بين النشاط والبيئة ليتفاعل الطالب مع مجتمعه.

١٠ ـ جدية النشاط الدينى، فلا يكون مثلاً وسيلة لضياع الوقت، أو لغرض ظهور أو مشاركة، بل يجب أن يكون لوجه الله بعيداً عن الشائبات.

١١ ـ الاهتمام بالنواحى العملية، لأنها تساعد على اكتساب خبرات ومهارات، كالجمعيات التعاونية.

١٢ ـ الاحتفاظ بآثار النشاط الممتاز التى ينتجها التلاميذ، لأنها مثيرة للتنافس بين السلف والخلف.

هذا، وقد قرر المؤتمر الثانى لمجمع البحوث الإسلامية المنعقد فى القاهرة فى المحرم سنة ١٣٨٤هـ (مايو ١٩٦٥م) فيما يختص بتربية الشباب ما يأتى:

١ ـ أن التربية الدينية وإشاعة الإيمان والخير فى القلوب هى خير ما ينقذ الشباب مما صار إليه البعض من انحراف وانحدار.

٢ ـ وأن انحراف بعض الشبان وتركهم شعائر الدين مرض نفسى يعالج

بالرفق والعطف والنصح الذى يصل إلى أعماق النفس، وذلك اتباعًا لأسلوب القرآن، وأوصى بما يلى:

١ – تعريف الشباب بالأمجاد التاريخية للإسلام والعروبة، حتى يزدادوا ثقة بدينهم وتمسكًا بمبادئه السمحة القوية.

٢ – إعداد جيل كامل واسع الثقافة من رجال الدين يتولون تهذيب الشباب وقيادتهم على الأساس التربوى السليم.

٣ – جعل التربية الدينية جزءًا أساسيًا من مناهج التعليم فى جميع معاهد المعلمين والمعلمات، أيا كانت المواد التى يتخصصون فى تدريسها.

٤ – أن يكون لوسائل الإعلام نصيب مثمر فى توجيه الشباب وتكوين رأى عام سليم، فى الإذاعة ومجلات الشباب والندوات والصحف والقصص وغير ذلك من الوسائل الإعلامية. حتى يمكن اتقاء الأضرار الناتجة عن دعوات الانحراف والمجون التى تظهر فى بعض وسائل النشر والإعلام.

٥ – أن تؤلف للشباب كتب ملائمة لمستواهم وعقولهم عن أعلام الإسلام وقادة العروبة، وفى التاريخ المقارن، تبرز فيها الحقائق التى توضح جوانب القوة فى الحضارة الإسلامية وفى الصلة بين العبد وربه وبين الفرد والمجتمع، كما ينبغى الاهتمام بالرقابة على الكتب التى تنشر الانحراف سواء أكانت مترجمة أم مؤلفة، مما يقوم به الأفراد والهيئات، وأن يوضع قانون يحتم عرض هذه الكتب على هيئة مختصة قبل طبعها.

* * *

الفصل التاسع
فى وسائل أخرى للتربية

إن انتقال المعلومات وانطباع التوجيهات فى نفوس الناشئين وغيرهم يأتى بعدة وسائل، عن طريق الحواس التى زود الله بها الإنسان للمعرفة، فهو بأذنه يسمع من المربى ومن المذياع.ومن أى قارىء وموجه، وهو بعينه يقرأ الكتب والصحف والإعلانات، ويشاهد التمثيليات والأفلام، ويزور المعارض والأسواق والمتاحف بالرحلات وينظر إلى الأفق ليرى آيات الله فى الكون، وهو بعقله وفكره يبتكر ويكتشف ويستنبط، وبروحه ووجدانه وغريزته يتشرب المعانى من الغير بالقدوة والإيحاء أو التكيف بالجو الذى يحيط به، كحبه لعمل من الأعمال قلّد فيه غيره، وكالتزامه بالقوانين الموضوعة والعرف الجارى.

والمعلومات الثقافية والأخلاقية وسائر المؤثرات قد يحصل عليها الإنسان باختياره وقد يضطر إليها أو تأتيه عفواً دون قصد وتكلف، فمن الأولى الذهاب إلى المدرسة والقراءة والمشاهدة والاستماع لما يحبه ويختاره، ومن الثانية إعلانات تضطر الإنسان للنظر، وإذاعات تلاحقه وهو يحاول الهرب منها عند نومه أو مذاكرته أو انشغاله بشيء آخر، وقانون مفروض عليه لا يمكنه أن يتخلص منه، وعرف ضابط يحكم سلوكه، ومنها وسط يعيش فيه لا يجد مَنَاصاً من التأثر به، ومنها ألفاظ تخرق أذنه متقززاً منها يسمعها من الشارع أو من زملائه.... وهو بكل هذه الوسائل يتأثر معرفة وسلوكاً، وقد أشرنا فيما تقدم إلى دور المربى من الوالدين ومن المدرس، فلنشر هنا إلى الوسائل الأخرى وما ينبغى أن تكون عليه لتؤدى واجبها فى التربية السليمة.

(أ) الإذاعة:

الإذاعة منها مسموعة فقط وهى المنقولة عن طريق المذياع «الراديو» ومنها مرئية، وهى المنقولة بالتلفاز «التلفزيون» والإذاعة بشقيها من أخطر الوسائل المؤثرة

فى ناحيتى المعرفة والسلوك، لأنها منتشرة بشكل كبير فى أمكنة وبيئات وأوساط واسعة المدى، ولأنها تيسر المعرفة لغير العارفين للقراءة والكتابة وما أكثرهم، ولأنها تملك من وسائل الإيضاح وأنواع التأثير المسموع والمرئى ما لا يملكه غيرها من الوسائل، لأنها تنقل أنواعاً شتى من المعارف ترضى كل الأذواق أولاً، وتجعل المتأثر بها لا يشعر بالملل والسأم ثانياً، لأن بها مغريات أخرى تحمل الناس على متابعة برامجها. إلى جانب أنها وسيلة لانتقال معارف لا يمكن الحصول عليها إلا بالأسفار البعيدة والنفقات الباهظة، فهى حاملة جميع الثقافات، وقد تغلغلت فى كل الأوساط واستطاع أن يفيد منها أو يتأثر بها الغنى والفقير والرجل والمرأة والكبير والصغير، والمتعلم والأمى. وهى تلاحق الإنسان كرهاً بإذاعتها فى البيوت المجاورة أو المحال العامة، لا يجد الإنسان مفراً من التأثر بها، وعلى مدى طويل من الزمان، بل يكاد يستغرق كل ساعات الليل والنهار، والركائز الأساسية لمهمتها هى الإعلام بنشرات الأخبار وغيرها، والثقافة ببرامجها المتعددة، والتسلية بمظاهرها الكثيرة الغالبة، وفى بعض برامجها ما يخص الأطفال وما يخص الشباب وما يخص المرأة وما يخص العمال من النواحى العلمية والصحية والسلوكية والاجتماعية، وفيها من برامج التعليم شىء كثير.

ولما كانت البرامج منوعة يقصد بها إرضاء كل الأذواق اشتملت أحياناً على أمور تتنافى مع الدين والأخلاق والتقاليد. كالرقص والأغانى العاطفية المثيرة والتمثيليات التى تتعرض للنقد والتجريح لبعض الأشخاص أو الأفكار التى لا يجوز تجريحها، كإعلانات الحفلات الصاخبة والمشروبات المحرمة.... كان الخير المرجو منها علماً وخلقاً مشوباً بشر وفساد، وقد يكون الشر والفساد أكثر تأثيراً، لأن هذه البرامج المتملقة للغرائز من الرقص والأغانى مثلاً تذاع بطرق جذابة تؤثر فى كل من سمعها، ويحاول النشء تقليد ما فيها من بطولات لتمثيليات أعجبوا بها، وهو يحفظ الأغانى ويرددها غادياً ورائحاً، لأن ذلك كله يتجاوب مع الهوى، ولا يجد صعوبة فى تقبل النفس لها. بل يجد ترحيباً واستعداداً كبيراً.

وإذا كنا نوجه الناس إلى اختيار الاستماع لما هو خير منها، فإن ذلك لا يستطاع إلا بالتحكم فى الجهاز الذى يملكه كل فرد، ولكن لا سبيل إلى ذلك بالنسبة لغيره وللأمكنة العامة. وبهذا تكون المسئولية أكبر على المشرفين على الإذاعة. فهم الذين يستطيعون التحكم فيها، فلا يذيعون إلا الخير النافع، وعليهم وزر إذاعة كل محرم ومفسد للأخلاق، ودعوى إرضاء جميع الأذواق لا تمنع المسئولية فليس كل الأذواق يجب أن ترضى كما قال الله تعالى: ﴿ **وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ** ﴾ [البقرة: ١٢٠]. والمفروض فى المسئولين أن يقوِّموا الأذواق لا أن يتملقوها. والواجب أن تكون هناك هيئة دينية علمية تربوية تشرف على البرامج لا تسمح إلا بإذاعة الصالح منها.

على أن الأمر لو وقف عند حد إذاعة تصدر من دولة لكان أسهل، لكن إذاعات العالم كله مفتوحة، وليس هناك قانون دولى يحتم على كل الدول أن تلتزم بطريقة معينة فى هذه الناحية أو غيرها. وإذا كانت هناك مؤتمرات تعقد للقائمين على الإذاعات فإنها لا تجمع كل ممثلى الدول، ولا تلتزم بتوصياتها الدول المشتركة فيها، والدول تختلف فى ثقافتها وأفكارها. ولها أذواق خاصة فى الاستحسان والاستقباح، فمن الصعب اتفاقها على طريق واحد فى هذا السبيل. ولكن مهما يكن من شىء فإن المحاولات المذكورة تخفف إلى حدٍّ ما من حدة التأثر غير المرغوب، وعلى أولياء الأمور من الآباء وغيرهم واجب كبير فى هذه الناحية، والمسألة يلزمها التفاهم والتعاون والشعور بالمسئولية الجماعية.

(ب) الصحافة والكتب والمكتبات:

أطلق الكتاب على الصحافة اسم السلطة الرابعة، لقوة أثرها فى توجيه الشعب وإصدار الأحكام على الأشخاص والتصرفات وتكوين الرأى العام، وهى تقوم على الإعلام والأخبار، وعلى الرأى والمعلومات المتنوعة، وتلى الإذاعة فى قوة التأثير، لأن الذى يقرؤها هو المتعلم، أما الأمى فلا يقرأ، وإن سمع فإنه لا يكون كالقارئ. ويقوى أثرها كلما كبرت نسبة المتعلمين وقلّت نسبة الأميين، فهى لها

خطرها على كل حال لسعة انتشارها ولوسائل الإثارة التى تملكها، والجانب الدينى والسلوكى فيها قليل جداً، اللهم إلا الصحافة الخاصة بذلك، وهى قليلة غير رائجة، ولا تخرج على الناس إلا فى فترات متباعدة، وإخراجها ليس فى مستوى الإخراج الصحفى للجرائد اليومية والمجلات الأسبوعية والشهرية، وإمكاناتها المادية أقل بكثير من غيرها، وكذلك ضعف الروح الدينية عند الناس يجعل الإقبال عليها قليلاً.

وفى بعض أبواب الصحف اليومية ثقافات خاصة بالأطفال والشباب، وبعض بحوث تعالج مشكلات وتمس الأمور المتعلقة بهم، وهناك مجلات خاصة للأطفال، وأخرى للشباب كما توجد صحافة للمرأة. وأثر الصحيفة تابع للمشرفين عليها فى ثقافتهم وآرائهم وروحهم، وللخط المرسوم لها الذى تلزمه ولا تخرج عنه، وكثير من المشرفين عليها لا ينشرون إلا ما يوافق آراءهم فى الحسن الذى يحدده ذوقهم وقوانينهم ولوائحهم التى تحكمهم وتوجههم، ولكثير منهم آراء تربوية وحضارية وأساليب نفاذة لا تتصل بالدين ولا بالخلق، فليس للدين عندهم القداسة الواجبة، وليس الخلق إلا ما وضعوا قاعدته وحددوا مجاله بأنفسهم لا بما يراه الدين. ولعدم وجود هيئة خاصة دينية تربوية تشرف عليها، ولأنها منحت حرية واسعة كانت سلاحًا خطيراً، فكم نقدت وجرحت وروجت وشوهت باسم الحرية. وكثير منها لا يسمح بنشر ما يصحح الخطأ أو يوضح الغامض، إلى جانب الروح المادية النفعية المتسلطة على كثير من أصحابها، فهى تريد ربحًا وفيراً بنشر كل ما يثير ويسترعى الانتباه دون مراعاة لخلق أو دين.

وإذا كان القارئ لها يتسع خبرة ومعرفة بالمعلومات والأخبار التى تنشرها فإنه لا بد أن يصطدم بما لا يجوز أن ينشر من آراء وإعلانات وصور فاضحة للسهرات واللقاءات المنافية للدين والأخلاق. وهنا يمكن لولى الأمر أن يمنع النشء من قراءة الصحف والمجلات المنحرفة، كما يجب على المسئولين أن يوجهوا

الصحافة وجهة طيبة، ويحدوا من الحرية المعطاة لها، أو يحددوا معالم هذه الحرية، ويحتفظوا للدين والخلق بالقدسية، كما يحتفظ بها للمصالح العليا للدولة.

والمطبوعات الأخرى كالكتب مثلها مثل الصحافة فيما يجب أن تلتزم به، وإذا كانت هناك رقابة على الكتب فلتكن هناك رقابة بهيئة خاصة على الصحف، لكن الكتب أقل رواجًا من الصحف، لأن أسلوبها أعلى ومادتها علمية محضة غالبًا، وثمنها غال أيضًا، فاقتناؤها وقراءتها تكون للمهتمين المثقفين القادرين، والمكتبات العامة تحمل بعض العبء من جهة اقتناء الكتب، لأنها تيسر الاطلاع عليها، ولأن بها كتبًا نادرة ومخطوطات هامة ومراجع ووثائق لا يستطاع للفرد العادى أن يحصل عليها. ودور الكتب كانت لها رسالتها فى العالم الإسلامى قديمًا، ومن أشهرها دار الحكمة التى بناها المأمون وجعلها مباحة للعلماء المبرزين خاصة، ليطلعوا وينتجوا، وبها كل الألوان وجميع الثقافات، وفيها ما يتصل بتربية النشء وتوجيه الشباب، وغير خاف أن الإسلام يشجع التأليف ويحث على القراءة والإفادة، فهى وسيلة العلم تحصيلاً ونشرًا، وموقفه من ذلك لا يدانيه أى موقف فى عالم الأديان، والكتاب من أقوى الوسائل لنشر العلم وتداول الثقافة وانتقالها عبر الأجيال، لأنها تحفظ وتصان وتستطيع الثبات أمام عوامل التخريب والفساد.

(جـ) المسرح والسينما:

المسرح مكان تمثل فيه الروايات بوساطة شخصيات حية تؤدى أدوارها أمام الآخرين. والسينما دار تعرض فيها الروايات والأحداث مسجلة على أشرطة خاصة. وهما يعتمدان فى عملهما الأساسى على الترويح والتثقيف، وفى ناحية الثقافة تقوم بطريقتها بعرض شىء مكتوب يدخل فى تقويمه مع الصحف والكتب، ولها فى العرض إخراج خاص وشخصيات نسائية مع الرجال قد تحكم الملابس عليهم أو لا تحكم، فيكشفن عن عورات، ويتلفظن بكلمات ذات وقع غير لائق، وهى ذات تأثير قوى على المشاهدين لأنهم يستعلمون حاستى السمع

إن النجوم التى تلمع فى المسارح ودور السينما - والتليفزيون - لها بريق وطنين فى آذان وأبصار الناس يسرعون إلى تقليدها فى كل شىء فى الأسماء والأزياء والتصرفات المختلفة، وقد اتخذت البيوت التجارية أسماء هذه الكواكب وسيلة إعلان تجذب بها الناس إليها، فطريق الجنس واسع ميسر سريع، بل هو أقرب الطرق إلى الوصول إلى الهدف.

(د) دور العبادة :

دور العبادة فى المجتمعات الإسلامية وبخاصة المساجد، هى الأمكنة الوحيدة المتوفرة بشكل واضح منتظم، على نشر الفضيلة ومحاربة الرذيلة، وهى من الوسائل الفعالة فى هذا المجال، لأنها ترغب وترهب عن طريق العقيدة والعاطفة الدينية، والعقيدة الدينية لها سلطانها على النفوس، إنها مكان للثقافة الدينية بمحاضراتها وخطبها. ومكان للتربية العملية على الخير بما يقام فيها من صلاة شرعت لتنهى عن الفحشاء والمنكر، وفى المساجد يغرس كثير من الفضائل الخلقية الشخصية والاجتماعية، والمساجد فيها تصفَّى المسائل الدينية وتقوَّم الآراء المنحرفة، وتحارب البدع المنتشرة، ويوجَّه الرأى العام وجهة الخير، ولها دورها فى الحركات التحررية والنهضات الإصلاحية، وفى الجهاد وحماية الوطن وغير ذلك من الأعمال الجليلة.

إن القاعدة الدينية هى أقوى القواعد فى تربية النشء وأرسخها، والمساجد مثابة لتقوية هذه القاعدة والحفاظ عليها، ولهذا جاءت التوصية بالتردد عليها وإفادة الخير منها، أو على الأقل البعد فيها عن فتن الحياة ولهوها، قال تعالى: ﴿ **فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ** ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧]. وهناك أحاديث كثيرة ترغب فى التردد عليها، إلى جانب الحث على إنشائها وتعهدها بالنظافة وتهيئتها للعبادة، يقول النبى ﷺ: «بشر المشائين فى الظلم إلى المساجد

والبصر، مع المشاهدة الحسية لأشخاص الممثلين فى المسارح، فالانتباه إليها أشد، والتأثر بها أوقع، وإذا كانت مادة الرواية غير طيبة تأثر بها المشاهدون بسرعة، وحاول النشء تقليدها فى حياتهم العملية، والنقط الطيبة فى مثل هذه المعروضات قليلة، وتضيع وسط زحام الترفيه بالنقط الأخرى، إلى جانب أن فى الاجتماع للمشاهدة لا تراعى الآداب وبخاصة عند اختلاط الجنسين.

وقد اهتم المنتجون بالربح المادى أكثر من الربح الأدبى فحاولوا إغراء الجمهور بتمثيل الأمور الغريبة، وعرض ما يمكن من الجوانب المحببة إلى النفوس فى مجال الغريزة، وصارت هذه الدور - كما يقال - يقاس فيها نجاح الرواية أو الفيلم بمقدار ما يصرف من شباك التذاكر، فقد تحولت المهنة إلى تجارة أكثر منها ثقافة، وإذا كانت هناك توصيات بمنع بعض الأفلام عن الشبان والأطفال فهى وصايا لا يلتزم تنفيذها، بل تغرى بمشاهدتها «وحَبُّ شىء إلى الإنسان ما منعا».

وعلى الجملة فالفائدة المرجوة منها قليلة بالنسبة إلى المفاسد الكثيرة، وهناك بعض قليل جداً من الأفلام التاريخية أو الهادفة إلى معان طيبة. لكنها لا تخلو من مشاهد ترفيهية مثيرة، مراعاة للكسب المادى أيضاً. ولهذا نوصى بعدم التردد عليها، وبخاصة أطفالنا ومراهقونا سريعو التقليد، الذين يحفظون من الأغانى ومن أدوار الممثلين وأسمائهم وتواريخهم ونشاطهم ما لا يحفظونه من القرآن، ولا يعرفونه من تاريخ المشاهير والقادة المسلمين، أو على الأقل أسماؤهم، وهى محنة يجب أن يتدخل فيها المسئولون لحماية الأمة.

ولعله لا يغيب عنا انصراف التلاميذ عن دروسهم إلى هذه الدور، مما يؤثر على سير الدراسة وثقافة الناشئ وخلقه، والتبعة ملقاه على المشرفين على هذه الدور والمصرحين بها وعلى أولياء الأمور الذين يصحبون أولادهم إليها أو يسمحون بالتردد عليها دون رقابة. وكل هذا كلام جميل لولا أن الأفلام انتقلت الآن من دور السينما إلى البيوت كلها حيث لا يخلو منها جهاز تليفزيون تعرض فيها كل الأفلام المحلية والأجنبية.

بالنور التام يوم القيامة »[١] . ويقول فى ضمن السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله « ورجل قلبه معلق بحب المساجد »[٢] ويقول : « إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان »[٣] كما أن الإسلام جعل المشى إلى المساجد عبادة يعطى الله على كل خطوة حسنة، ويحط سيئة، ويضاعف بها الثواب، ففى الحديث « صلاة الرجل فى جماعة تضعفُ على صلاته فى بيته وسوقه خمساً وعشرين درجة، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى الصلاة لا يخرجه إلا الصلاة، لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة وحط عنه بها سيئة »[٤] وفى الحديث أيضاً « من غدا إلى المسجد أو راح أعد له فى الجنة نزلا كلما غدا أو راح »[٥] .

وقد كانت المساجد منبع الثقافة والتوجيه ومجتمع الخير فى كل مناسبة، وحلقاتها كانت عامرة بطلاب العلم ومجالس العلماء، كما تقدم ذلك فى الحديث عن مكان التربية، وعلى الآباء أن يعودوا أبناءهم التردد عليها، مع ملاحظة تجنيب الصبية غير المميزين دخولها، وإن كان يحسن شهودهم لها بالقرب منها حتى يألفوا رؤيتها وتنمو فى نفوسهم روح التقليد للمصلين فيها .

ومن التوجيه للخير أن يكون المشرفون على تثقيف الناس فى المساجد ذوى خبرة نفسية وعلمية، ليعرضوا مشكلات المجتمع فى لباقة على المصلين، وليختاروا من الأساليب ما يناسب الأوساط التى تقام فيها المساجد، على أن يضموا إلى خبرتهم العلمية والفنية سلوكاً ممتازاً يغرى بالقدوة به، فهو أكبر وسيلة للتقويم، والموجه الدينى فى وسط الحى ومع جمهوره الذى يعتاده يكون بمثابة الوالد، وبمنزلة الأخ والقائد والزعيم، وعليه أن يراعى كل ذلك وهو يؤدى مهمته، ويتصرف على ضوء هذا الشعور .

---

(١) رواه أبو داود والترمذى عن بريدة ورجال إسناده ثقات .

(٢) رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة .

(٣) رواه الترمذى وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان وغيرهم عن أبى سعيد الخدرى .

(٤ ، ٥) رواهما البخارى ومسلم عن أبى هريرة .

ومن التوجيه أن يعاد للمسجد نفوذه الروحي وهيبته الدينية ورسالته الاجتماعية، فتعقد فيه مثلاً اجتماعات الخير وحفلات المناسبات الدينية ليعتاده الناس ويألفوه ولا يرمى من يتردد عليه بالرجعية والتأخر.

إن رسالة المسجد فى تقويم النشء عظيمة، لأنها ثقافة عملية تفيد العقل والخلق والروح، وتخدم المجتمع خدمة عظيمة، عن طريق القيم الروحية العالية، التى هى الركائز المتينة لكل تقدم ونجاح، ولو أن كبار القوم عمروها بالصلاة ووالوها بالتكريم لقلدهم غيرهم بسرعة، ولكان من وراء ذلك الخير الكثير.

(هـ) القوانين والتقاليد:

من الأشياء التى تؤثر على السلوك، وعن طريقها تمارس الأخلاق والعادات – القوانين التى تضعها الحكومات والتقاليد التى يتوارثها المجتمع، ولكل منها سلطانه على النفوس، القوانين لها سلطانها بقوة الحكومة، والتقاليد لها سلطاتها بقوة العرف، والخارج على الأولى يعاقب ماديًا وأدبيًا، والخارج على الثانية عقابه غالبًا أدبى، ومهما يكن من شىء فإن سلوك الإنسان يدور فى هذا المحيط المحدد لا يتعداه، وإذا كانت القوانين صالحة والتقاليد مرضية أنتجت فى التربية خيرًا كثيرًا، وصلاحها يكون بموافقتها للدين ورقابة تنفيذها وتطبيقها بدقة وإخلاص. والملاحظ أن بعض القوانين – إن لم تكن كلها – تخرج فى بعض موادها على الدين، كإباحة الخمر والربا والميسر والزنا فى بعض حالاته وكشف العورات والاختلاط.... والقانون يكفل حرية تناول هذه الأشياء، والنشء الذى ينشأ فى ظل مثل هذه القوانين نشء مضيع، مغلوب على أمره ما دامت هناك حماية لحريته، تيسر له الخطيئة وتخفف المؤاخذة عليها، كما يلاحظ أن بعض الأعراف والتقاليد لا يقرها الدين، كالأخذ بالثأر وعادات المآتم والأفراح وحرمان المرأة من التعليم فى بعض الأوساط.

والتقاليد يمكن بالتوعية تخفيف حدتها، والخروج عليها إلى الدين يقلل من نقد الناقدين. والواجب هو الشجاعة وإيثار رضا الله على رضا الناس، ففى

الحديث الشريف «من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مئونة الناس»(١). غير أن القانون يصعب الخروج عليه بصفة فردية، لكن يمكن تعديله بطريق مشروع على يد من يملكون ذلك، وهم واضعوه باسم السلطة التشريعية. وإذا لم يتجاوب القانون والتقاليد مع الدين والأخلاق ضعف أثر التربية الخلقية والدينية، التى تقوم على الترغيب والترهيب الأدبى أكثر مما تقوم على قوة القانون وسلطة التقاليد.

والإصلاح لا بد فيه من التعاون، كل فيما يخصه، قال تعالى: ﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ** ﴾ [المائدة: ٢]. وفى الحديث الشريف «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»(٢).

(و) وسائل أخرى:

هناك وسائل غير ما تقدم، يعدُّ منها الباحثون: المعارض والأسواق وأماكن السياحة ومراكز الثقافة الشعبية والحمامات والمعسكرات والساحات وغيرها، وهذه كلها وسائل يفيد منها النشء ثقافة ومعرفة، ويمارس ألوانًا من النشاط الرياضى، وتمتلىء نفسه حبًا لوطنه وإخوانه، وإعجابًا بما يراه من آثار السابقين وجهودهم، وإنتاج عباقرة الزراعة والصناعة وغيرها، وتعشقه لهم ومحاولة التأثر بهم.....

وهذا كله لا بأس به ما دام هناك إشراف دقيق يضع يد الناشىء على الحقائق الطيبة فى الحياة، ويلفت أنظارهم إلى المعانى الكثيرة الكريمة، وما دام النشاط فيها مراعى فيه حدود الآداب واللياقة، خصوصًا فى الحمامات والساحات، وما دام ذلك لا يلهى عن واجب دينى أو وطنى، وقد لفت الله أنظارنا إلى التفكير فى خلقه وتقليب النظر فى ملكوته وإلى العبرة والموعظة من سير الأولين. وآيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ فى ذلك كثيرة مشهورة. وكل نشاط يؤدى إلى الخير فهو خير، والإسلام يشجع ويجزل له الثواب.

---

(١) رواه الترمذى وغيره عن عائشة. (٢) رواه البخارى ومسلم عن أبى موسى.

الفصل العاشر

فى تزويج الولد

الزواج مسئولية كبرى يحس الناشىء فيها برجولته، ويدرك أنه مسئول عن غيره بعد أن كان غيره مسئولاً عنه، ولهذا ينبغى ألا يقدم عليه أحد إلا بعد أن يستوى عوده ويشتد عموده ويتمكن من تحمل تبعاته.

والزواج على ما هو معروف من حكمته يقصد منه النسل والتعاون فى الحياة وإعفاف النفس، وإذا أحس القائم على تربية النشء أن الزواج مصلحة له دينا ودنيا فلا مانع من تزويجه، لكنه – وهو ما يزال تحت رعايته قبل استقلاله – هل يجب عليه أن يتحمل نفقات الزواج وتبعاته من صداق وغيره؟ هذا راجع إلى حكم الزواج نفسه لمن هو فى هذه السن المبكرة هل هو واجب إذا تعين سبيلاً إلى العفة وعصمته من الخطأ فيلزم ولى الأمر بنفقاته؟ أو هو مندوب يمكن الاستغناء عنه لكن هناك مصلحة ترغب فيه، فيندب للولى أن يقوم بهذه النفقات؟ لقد ورد فى الحديث الشريف «الغلام يعق عنه يوم السابع ويسمى ويماط عنه الأذى، فإذا بلغ ست سنين أدب، فإذا بلغ سبع سنين عزل فراشه، فإذا بلغ ثلاث عشرة سنة ضرب على الصلاة، فإذا بلغ ست عشرة زوجه أبوه، ثم أخذ بيده وقال: قد أدبتك وعلمتك وأنكحتك، أعوذ بالله من فتنتك فى الدنيا وعذابك فى الآخرة» رواه أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب الضحايا والعقيقة، إلا أنه قال «وأدبوه لسبع، وزوجوه لسبع عشرة» ولم يذكر الصوم. وفى إسناده من لم يسم[1].

وروى أبو نعيم والدَّيلمى عن أبى هريرة حديث «حق الولد على الوالد أن يحسن اسمه وأن يزوجه إذا أدرك ويعلمه الكتاب» أخرجه فى الجامع الصغير للسيوطى، وهو ضعيف، وفى الجامع الكبير له «اضربوه على الصلاة لسبع،

(١) الإحياء ج٢ ص١٩٣.

واعزلوا فراشه لتسع، وزوجه لسبع عشرة إن كان، فإذا فعل ذلك فليجلسه بين يديه ثم ليقل: لا جعلك الله علىَّ فتنة فى الدنيا ولا فى الآخرة» رواه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة عن أنس، كما تقدم ما أورده ابن القيم فى «تحفة الودود» من أثم الوالد إذا لم يزوج ولده فانحرف.

وأرى أن معونة الولد على زواجه من باب البِّر به، كما أن قيام الأب بتأديب بناته وتزويجهن من أعظم القربات كما تقدم، وإن كنت أنصح الولد بأن يبدأ حياته الزوجية وهو حر مستقل عن كفالة والديه له، ليستطيع أن يقوم وحده بأعباء هذه الحياة الجديدة، حتى يكون الزواج له سكنًا بالمعنى الصحيح، وحتى تثمر الأسرة الجديدة ثمرتها الطيبة.

وإذا تطوع الوالد بتزويج ولده ليفرح به، كما هو عرف بعض القرويين، كان عليه أن يكون وفيًا له، لا يتركه بعد الزواج يحمل العبء وحده وحَسْبُه أنه فرح بتزويجه ساعات أو أياماً، ولا يهمه بعد ذلك أن يشقى ولده أو يسعد، والمآسى والصور المحزنة خير شاهد على ما أقول، والإسلام ينهى عن الضرر والضرار، ويأمر بالتدبر عند الإقدام على عمل مهم مثل هذا العمل، ويحذر من التورط في المهالك، وقد سبق قول الله سبحانه فى ذلك ﴿**وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ**﴾ [النور: ٢٣] وقول النبى ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطيع فعليه بالصوم فانه له وجاء»(١).

* * *

(١) رواه البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود.